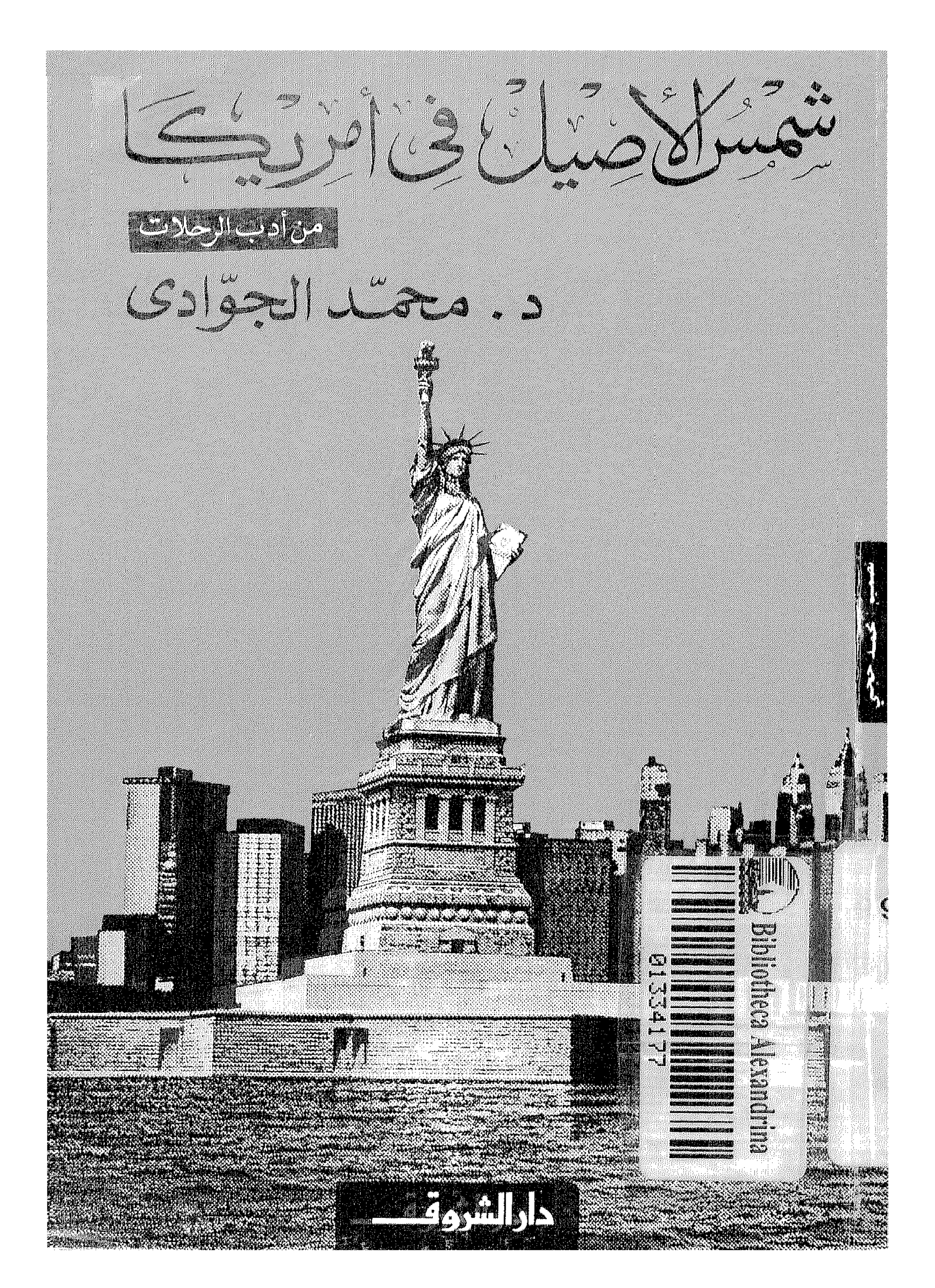

شمس الأصيل فى أمريكا
من أدب الرحلات
د. محمد الجوّادى
Bibliotheca Alexandrina
01334177
دار الشروق


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شمس الأصيل في أمريكا

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف . ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٢٩٣٣٢
فاكس ٠ ٣٩٣٤٨١٤ (٠٢) تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨٦٧٥٥٥ - تلكس : SHOROK 20175 LE

دكتور محمّد الجوّادى



دار الشروق

الغلاف : الفنان محمد حجي
الخطوط : محمود إبراهيم

إهداء

إلى روح عاشق النشر ،

الأستاذ محمد المعلم

المثقِّف العربي العظيم

مقدّمة

كـان من حظى أن أزور أمـريكا عـام ١٩٨٣ ، وكـان من حظى أن أزور أمـريكـا عـام ١٩٩١ ، ولكنى بـدأت الـزيـارتين بنفسيتين مختلفتين ، فقبل الزيارة الأولى كنت فى غاية الشوق إلى زيـارة أمريكا وجاءت الفرصة الأولى فى ١٩٧٨ ، ولكنى كنت يـومها قـد بدأت خطـوات السفر إلى الأراضـى المقـدسة لحج بيت الله، وجاءت الفرصة الثانية فى ١٩٨٣ فلم أتوان * .

كانت دعوة لحضور ندوة عن الشيخوخـة والتقدم التكنولوجى لمدة ثلاثة أيام فقط ولكنى انتهزت الفرصة وأثـريت الزيارة بعدة برامج خططت لها قبل السفـر ثم فى أثنـاء وجـودى فى أمريكـا نفسهـا. و فيما بين ١٩٨٣ و ١٩٩١ جاءتنى الفرصـة لزيارة الولايات المتحـدة الأمريكية ولكننى كنت متردداً ربما بأكثر مما كنت متحمساً فيما مضى لزيارة أمريكا.

بل إننى فى إحـدى المرات حصلت على تأشيرة الدخـول وحجـزت تذكـرة الطيران ولكنى فى آخر لحظـة آثرت البقـاء فى القاهـرة لأقطع خطوات كبيرة فى عمل تـاريخى كبير لم أنته منـه بعد ، و فى مـرة أخـرى كانت أمـامى فرصة محددة باليـوم لبدء زيـارة طبية ذهبية لـواحد من أكبر مـراكز طب القلب فى أمريكا والعالم ، و لكننى آثرت أن أبقى حتى لا ينفرط عقد ما بذلت من جهد فى رسالة الدكتوراه .

---

* عن هذه الزيارة كتب المؤلف فصلا من كتابه " رحلات شاب مسلم » ، دار الصحوة ، ١٩٨٧ "

وفى آخر ١٩٩٠ كـان علىّ على ما أُبلغت تليفونيـاً وتلغرافيـا أربع مرات فى يومين متتالين أن أتوجه من فورى للكشف الطبى وفى اليوم التالى للسفارة وفى اليوم الثـالث أو الرابـع ا ستقل الطائرة لأكـون فى جورجيا حيـث يُقدر لى أن أقضى ثمانية عشر شـهراً فى ظل منحـة السلام التى حصلت عليها لجمع المادة العلمية للدكتوراه .. ولكنى اعتذرت فلم أشأ أن أسـافر لمجرد السفر وبخاصة أننى كنت قد ناقشت رسالة الدكتوراه منذ ثلاثة شهور.

أحب أن أعترف أننى ظللت متردداً فى قـرار زيـارة أمـريكـا حتى بعـد أن وصلت الطائرة إلى بـاريس ثم إلى نيويـورك ثم صالة مطـار جون هـوبكنز بكليفيـلاند ، ســاعتها كنت أتحرك وقــد تملكنى التردد تماماً بينما أنـا أحمل حقيبتىّ الخفيفتين، وفجأة وجـدت اسمى على لافتـة يحملهـا شــاب وسيم يسـألنى هل نذهب لاستـلام الحقائب فقلت لـه ليس لى إلا هاتين ، فحمل عنى إحداهما وخرجنا من صـالة المطار لأجد أمامى مباشرة سيـارة بيضاء طويلة ذات أبـواب ستة كأنها هى سيـارة ريتشارد فى مسلسل فـالكون كـريست .. تمهلت لأتذكر فالكون كريست وأنجيلا وريتشـارد وماجى وميلسيا والصينى العجوز ، وبدا كما لـو أننى سأستغرق فى استدعاء ذكـريات.. أو قل إن شيئا من الشرود اعترانى .. وسرعان مـا أفقت لأجد أن حقيبة هذه السيـارة مفتوحة وأن حقيبتىّ قـد استقرتـا هناك وها هـو الشاب الـوسيم يغلق بـاب السيارة ويتقدم إلى الباب الخلفى الأيمن ليفتحه وليدعـونى إلى الركوب ، وينتظر حتى أجلس ثم يتفضل بأن يشـير إلى عشـرة أزرار كهربائيــة فى سقـف السيارة فى متنـاول يدى ويقــول إن هــــذه مفاتيح كل شــىء فى هذا الصالـــون .. ويغلـق الباب علىّ وينصرف إلى الناحيـة اليســرى ليفتح بابه ويربط حزامــه ويقلع بنا !!.

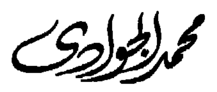
فى هذه اللحظة فقط بدأت أحس أنـه لم يكن ينبغى لى أن أتردد فى مثل هذه الـزيـارة. أنـــا أربأ بك عن أن تســارع فتتهمنى بـأننى انبهـرت حين ركبت الليموزين الأمـريكانى .. ولكنى لن ألـومك إذا اتهمتنى .. حتى ولو لمت نفسى لو اتهمتنى بهذا .. لى الحق فى أن ألوم نفسى .. ولنفسى الحق فى أن تلومنى.... ولكنى لن ألومك إذا ركبت صالونـا دائرياً جميلاً ينظر كل من فيه إلى بعضـهم تضـغط زراً فيضـىء التليفـزيون ، وزراً آخر فينضبط التكييـف وآخر فيعمل الراديـو ، ورابعاً فتنزل ستارة زجـاجية بينك وبين السائق فى كـابينته بحيث لايسمعك ، و خامساً فتنزل ستارة معـدنية سوداء بينك وبين السائق بحيث لا يـرى ما تفعـل ، وسادسـاً فتضـىء الأضـواء الجانبيـة الهادئة ، وسابعـاً فتضىء الأنوار السقفية المبهـرة ، وثامنا فتؤمن إغـلاق الأبواب عليك ... إلخ . وإلى جوار يدك اليمنى فى باطن باب السيارة الريموت الذى يضـبط لك ما تشاء من قنـوات التليفزيـون وصورته .. إلـخ . ومفاتيح قنـوات الراديـو . وأشياء أخرى . ثم هذا الصـالون الجميل المسمى بـالليموزين يتحرك وكأنه لا يتحرك ويُسرع وكأنـه واقف ، ويعبر طرقـاً من فوقها طـرق ومن تحتها طـرق وعن يمينها طرق وعن يسارها طرق ... وبينما الجليد يغطى أرضاً إلى يمينك.. فإن الخضرة تغطى الأرض التى إلى الناحية الأخرى .. والأضـواء المبهرة أو الملونة تأتى من بعيد وسرعان مـا تخبو ثم تعود .. وهذا هو طـريقنا إلى المدينة شأن كل مطار إلى مدينة ـ أحياناً تراه جميـلاً حتى لو كان موحشاً ، وأحيانا يكون كطريق باريس أو القاهرة أو بومباى عامراً بكل ما يبعث على الراحة والسعادة ولكن حرارة الجو أو رطوبته ومشقة الطائرة من قبل تجعلك تود لو ينتهى هذا الطريق بزحامه وإشاراته لتعود إلى مشاهدته مرة أخرى! و أحياناً يكون هذا الطريق شيئاً آخر غير الدولة التى هو فيها، كطريق المطار فى نيروبى عاصمة كينيا، و مع أن الطريق من جـون هوبكنز إلى كليفيلانـد ليس فيه شىء مميز

عن أمريكا التى نعرفهــا جميعاً والتى زرتها من قبل .. إلا أن ترددى فى السـفر إلى أمريكا كــان قد قارب التلاشى تمامــاً حين كنت لا أزال فى هذا الطريق . بل ربما بدأت ألــوم نفسى على تفريطى فى الفــرص المتكررة التى اعتــذرت عنها . وطيلة الفترة التى قضيتهــا بعد ذلك فى أمريكــا.. كنت أعود إلى التردد ، لا لكى أتردد فحسب ولكن لأحكم على نفسى : هل أصبت ؟ أم أخطأت ؟ .. لا أقصد فى هذه المرة فحسب ، و لكن فى المرات الأخرى التى ترددت فيها فى المجىء.

وتعود بى الذكريات إلى أوقــات كثيرة بات فيها كل من حولى مقتنعاً بأننى على وشك الهجرة إلى هــذا البلد! وأنا متعجب من أين جاءهم الاقتنــاع الذى لم ألمسه فى نفسى حتى الآن ولو لحظة واحدة! ولم أمهد له أبداً بأى إجراء !!. هل أنا محقٌ فى تعجبى ؟ أم أننى هاجرت من دون أن أدرى ؟

تعالــوا بنا نقرأ هذه الصفحــات المتفرقة لعلنــا نستطيع أن نستكشف معاً الإنسان والمكــان والزمــان .. بل لعلكم تستطيعون أن تكتشفــوا ما لم أستطع استكشافه حتى الآن وإن رأيته بعينىّ ووصفته لكم فى هذه الصفحات!

١١ ابريل ١٩٩١



الفصـــل الأول

هــل تغيّرت أمــريكا

(١)

هل تغيرت أمريكا .: هل غيرت أمـريكا نظرتها إلى العالم ؟ كنت أتحدث فى عشـاء (بـالنسبـة لى إفطـار رمضـانى) فى نـادى كليفيـلانـد للتـزحلق على الجليد (Cleveland Skating Club) فى اليوم التالى لوفـاة الأديب البريطانى جراهام جريـن ولا أعرف ما الـذى قادنى إلى أن أقـول : إنه مـن الطريف أن جـراهام جـرين لـم يحصل فى الخمسينيـات على تـأشيرة دخـول الـولايـات المتحـدة الأمريكية على أســاس تعاطفه مع الاتجاهات الشيوعيـة وذلك بسبب سياسة المكارثية التى تعتزم أمريكا التخلى عنها نهائياً هذا العام.. ربما .. أردفت ...إن حمى عـداوة الشيوعيـة كانت تنتـاب أمريكـا فى هذه الفترة . أمـا اليوم فقـد تفضلت إحـدى السيـدات الحاضرات فروت لى كيف يأتـى الروس اليـوم إلى أمريكا فى جماعات ، وأنها شـخصياً تفاجأ فى المدرسة التى تعمل بها بمجموعة مترابطة من الأطفال الروس جاءوا مع بعضـهم ، وقبلتهم المدرسة مع بعضـهم أيضـاً، ومهـدت لهم دروساً تعليمية تهيىء لهم الانخـراط فى التعليم الأمريكى بأقصـى سرعة .. وسرعـان ما ينجح هـؤلاء فى الانخراط فى الحياة الأمـريكية ..

هؤلاء الـذين جـاءوا وكأنهم لا يعرفـون حرفاً مـن الانجليزيـة على حد تعبير محدثتنا !!. إذن أمريكا لم تتغير، ولكنها لازالت توظف كل ما هو متاح لها فيما هي محتاجة إليه .. والحاجة تتغير مع الزمن ، وتغير أمريكا بالتالى فى توظيفها للمتاح فتبدو و كأنها تتغير!!.

وتسألنى مزيداً من الإيضاح فدعنى أتحدث معك عن قطاع الطب . تصور أن أى قسم من الأقسام فى أى مستشفى من المستشفيات الأمـريكية استبعد مـن أطبـــاء هـــذا القسـم أولئـك الأوروبيين والشرقيين والعـــرب واللاتينيين(القـادمين من أمريكا الجنـوبية) أى كل أولئك الـذين حصلوا على شـهادة المعادلة قبل أن ينخرطـوا فى الطب الأمريكى ، احصر هؤلاء واستبعدهـم من العمل فى هذا المستشفى . ستجد أنك ربما تختزل القسـم إلى أقل من نصفه وربما إلى أقل من ربعه .. هل سيتوقف القسـم . لا . لن يتـوقف فى أمريكا عمل أبداً ولكن مستوى الأداء والامتياز سينخفض بالطبع.

أمريكا ليست بلـد الأمريكيين وحدهم وإنما هى بلد كـل العاملين المجدين المتميـزين ، هكـذا فهـم الأمـريكيـون معنى أمـريكـا منـذ بـدأوا يقيمـون إمبراطوريتهم .. وهكـذا أفهمتهم امبراطوريتهم فيما بعـد من دون أن تتحدث الامبراطوريـة .. إنما يشبون فيجدون بلدهـم يتقبل مَنْ يضيف إليـه فيجدون أنفسـهم جيلاً بعد جيل حريصين على أن يتقبلوا كل من يؤملون فيه أن يضيف إليهم . و هكذا تتضاءل العنصرية القومية فى أمريكا حتى تصل فى رأى البعض إلى العدم ، وفى رأى البعض الآخر إلى العدم المعدوم ! .

ولكن أمريكـا فى ذات الوقت ليس بلد كل المهاجـرين ولا كل الطموحين أو كل الشاردين أو الذين يجيئـون من شُذاذ الآفاق . أمريكا بلـد الذين يجيئون لمهمة محددة تحتاجها أمريكا قبل أن يحتاجوها هـم .

هل من حقى أن أستطـرد لأحكى لك يـاسيدى أن بـلاداً عـربية مـرت فى العقدين الأخيرين بـالفرصة الكبرى التى تتيح أن تفيد من التجـربة الإيجابية التى خاضتها أمـريكا حينَ طعَّمت شعبها على النحو الذى طعمتـه به . والذى لازالت تطعمــه بـه ؟ نعم كـان فى وسـع بـلاد العـرب الغنيـة وهى تستجلب التكنولـوجيا العظيمـة التى استوردتها أن تتخلى بعض الشىء عن قـومياتها المحـدودة لتعطى الجنسية الكـاملـة لأولئك الخبراء والفنيين الـذين يديـرون حياتها التكنـوقراطية بل وأن تغـريهم على حمل هذه الجنسية بكل الـوسـائل التى تملكهـا ، ساعتها لم يكـن من حق أحد أن يفكـر بينه وبين نفسـه فى أنه هناك فى تلك البـلاد إلى حين ، وإنما كانت هـذه المجتمعات قـادرة على تذويب عـدد كبير من الكفاءات المتـازة فى كيان هـذه المجتمعـات، على نحو مـا فعل الأمريكان الأوائل بإخوانهم البريطـانيين والألمان والفرنسيين والعرب .. الذين ذهبوا بعدهم بمائة سنة أو مائتين .

كان فى وسـع هذه الدول أن تحتفظ ولـلأبد بأربعة آلاف طبيب مصرى من خيرة الأطباء المصريين يصبحـون فى خلال عشرين أو ثـلاثين عامـاً مرتبطين بهذه الـدول من جميع النـواحى بـارتبـاطـات اللسـان والمستقبل والماضى والأسرة والاستثمار والـولاء ، كما حدث لـلأوروبيين فى أمـريكا ، وأنـا أتلفت حولى فأجد الطبيب الفلبينى أو الإيرانى أمريكياً ـ مواطن أمريكى تماماً . بينما أسرتـه بأكملها فى الفلبين أو إيـران ــ الطبيب المصرى كـذلك ـ أسأل إحـدى الفتيات عن الملامح البولندية فيها أهى بولندية ؟ .. فتقول : بل أبواها جاءا من بولندا.. هـذه الزميلة ولدت فى سالـزبورج ولكنها أمريكيـة فحين ولدت هناك مـات أبـواها فى طـريقهما إلى الـولايـات المتحدة ، ومـديـرة التأمين الصحى يوغوسلافية الأب والأم ، ومـديرة النشر ألمانية الزوج والأب ، وسكرتيرة قسم الأسنان أيرلندية الأب ألمانية الأم ، وطبيب الأسـنان إيطالى الأبوين ، وسكرتيرة

قسم الأوعية الدموية إيطالية الأب أيرلندية الأم ، وزميلتنا الجديدة فى الرعاية المركزة سويدية الأب.

ما أكثر مَنْ هم حولى الآن من الذين لم يُولدوا فى أمريكا ومع ذلك هم أمريكان .. ولكننا فى بعض البلاد العربية وعلى رأسها مصر مصممون على ألا يكون مصرياً إلا من ولد من أبوين مصريين ، وبعد حين سيطور القانون من تلقاء نفسه بالتقادم وبدون حاجة إلى نصوص ليصبح ومن جدين مصريين ثم من سلالة مصرية إلى الجد الرابع !!! ، بل ربما وصل الوضع إلى هذا الحال ! .

(٢)

وأعود للسؤال الذى بدأتُ به هذا الفصل : هل تغيرت أمريكا حين بدأت ترحب بالروس بعد أن كانت ترفض مجرد دخول الأديب البريطانى جراهام جرين لأنه ربما يناصر الشيوعية مع أنه لم ينتم إلى الحزب الشيوعى إلا بضعة أسابيع عابرة !!.

ما أسهل أن يجيب المرء على مثل هذا السؤال بطريقة يجتمع فيها الذكاء والخبث ويقول : بل روسيا هى التى تغيرت ، حين تركت الشيوعية ، وحين تركتها رحبت بها أمريكا .. ولكن المسألة أعمق من هذا بكثير . إن أمريكا بلد مؤسسات وبلد سياسات قبل أن تكون بلد أهواء ، أو علاقات مودة أوتشفى!!

أمريكا تقدر أنها فى حاجة إلى مائة ألف عامل بسيط وإلا فإنها ستعانى تسلط العمال البسطاء ودكتاتوريتهم ، حتى وإن كانت محدودة الأثر .. إذن فلا مانع من أن يغض البوليس الطَرْف عن الذين يقيمون بصفة غير شرعية

ليقومـوا بمثل هذه الأعمال البسيطة . حتى إذا وصلت أمريكـا إلى المرحلة التى تحس فيها أن البطالة تهدد اقتصادها ، عندئذ يفتح البوليس عينيه أو يتظاهر بأنه يفركها وهو يرى هؤلاء المهاجرين المقيمين بصفة غير شرعية .

نفس الأمر فى الطب ـــ ربما أوافقك (وأنا سعيد بالطبع) أن الطب هـو قمة المهن ، وأنه سواء فى أمريكـا أو فى مصر أو بنجلاديش يمثل الطموح الأعظم لما يسمى بطبقة "الكريمة" فى شبـاب الوطن ، نعم . ولكن المسألة فى الطب أعمق من هذا ـ إن الطب يـؤدى وظيفة إنسانية مُلحـة أكثر مما يتحكم فى عنصر من عناصر سيادة الدولة نفسها .. ولهذا فإن طموح أى مجتمع ناجح إلى أن تكون الوظـائف المؤداة فيه على أعلى مستوى لن يمانع فى أن يعطى الفـرصة فى أداء هذه الوظيفة لمن هم أقدر عليها .. فإذا كان الأطباء الأمريكيون قادرين على أن يؤدوا الأداء الأمثل فى سبعين بالمائة من مواقع الخدمات الطبية الحيوية فلا بد من أن تُشغل الثلاثون فى المائة من المواقع الأخـرى بالكفاءات التى ترتفع بها إلى ذات المستويات المأمولة ، وإذا كـان الأطباء الأمريكيون غير قادرين إلا على خمسين فى المائة فلا بد أن يتاح للخمسين فى المائة الأخرى مَنْ هم أقدر عليها.

صحيح أن المجتمع الأمـريكى يتمنى أن يتـولى بنفسـه مـائة فى المائة من المواقع بل ويعمل جـاهـداً على تحقيق هـذا الهدف ، بل وتتيح له الإمكـانـات الموجودة أن يفعل هذا ، بل وإحصاءاته قادرة على أن تقول هذا دون معارضة، ولكن حقيقـة العمل شىء آخـر ، سـأضرب لك مثـلاً بمعمل للقسطـرة يضم عشرين طبيباً أمـريكياً قادرين تمامـاً على أداء مختلف أنواع القسـاطـر بنجاح والتزام تامين ، ولكن هنـاك إلى جانبهم خمسة من الوافدين المتأمـركين حديثاً يملكون قـدرة على الإضافة إلى هذا المعمل بحيث يتفـوق على معمل آخر ليس فيه هـؤلاء الخمسة ، ربما تتـوفر لهم قدرة أكثـر على الابتكار ، أو التطـوير ،

أوعلى الدراسات ، أو على توفير الوقت أو توفير الإجراءات والخطوات أياً كانت، بل وربما من وجهة نظر اقتصادية بحتة عندهم القدرة على توفير العملاء !! أى تمويل المعمل بالمرضى سواء من خارج أمريكا، أو من داخلها ، ربما تكون عندهم بحكم شخصياتهم قدرة على إيجاد سمعة لهذا المعمل فى الأوساط المحلية داخل أمريكا ، أو الدولية خارجها ، ربما تكون عند هؤلاء الرغبة الأكثر تأكيداً فى البقاء فى هذا الموقع لأكثر من عشر سنوات قادمة بينما الأمريكيون الأصليون يتنظرون الفرصة ساعة وراء ساعة للصعود إلى مواقع أكثر أهمية، أو أكثر ربحية ، سواء معامل أخرى أو مناطق أخرى أو رئاسات ، هذه هى بعض العوامل التى تحكم اتخاذ القرار بإدماج المتأمركين الجدد فى مواقع ممتازه ، ربما لايحلم بها الأمريكى حفيد الأمريكيين ، ولكن الأمريكى الذى يتخذ القرار يفعل كما يفعل أجداده الأمريكان من قبل حين كانوا ينسون مسألة الأبوين المصريين !!

وهذه هى روح أمريكا وإذا فقدت أمريكا هذه الروح فلن تكون هناك أمريكا، لن تكون أمريكا فى ذلك الوقت مشكلة نتحدث عنها فحسب ، وإنما سوف تكون عدماً ليس هناك من داع للحديث عنه .. إلا عن وجوده الذى سبق العدم .

ربما تستغرب منى ياسيدى هذه القسوة فى التعبير وتظنها شططاً للقلم ولكنها الحقيقة . تسألنى وأين تذهب قوة الدفع يومها ؟ ألا تستطيع قوة الدفع هذه أن تنقذ أمريكا عشرين عاماً أو ثلاثين حتى تعود إلى رشدها؟ وتستأنف توظيف أجناس الأرض فى خدمة تقدم أمريكا؟ .. أقول لك لا . لن تستمر هذه القوة أبداً كما تظن .. لأن أمريكا فى تقدمها تطير ، تحلق بعيداً عن كل ما يخلد بالإنسان إلى الأرض حين يتبع هواه.. قوة الدفع هذه تنقذ السيارات أو المجتمعات التى تسير .. ولكنها لا تنقذ الطائرة أبداً !!

وتسألنى كيف يحدث ذلك ؟ أقول لك : هل رأيت الناس الذين يجيدون السباحة يتدافعون للقفز من القارب الموشك على الغرق فيعجل تدافعهم بغرق القارب .. تماماً هذا هو الوضع الحالى فى أمريكا ، إذا أحس ناجحوها أن الكيان الأمريكى افتقد روح الإمتياز والتميز ، وبات يخلد إلى الماضى بلا عمل ساعتئذ سرعان ما سيتدافع هؤلاء الناجحون إلى ترك أمريكا تغرق بالمخلدين فيها.

لك أن تتصور أننى فى تفكيرى هذا شبيه بأديب محلق ، ولكن المجتمع الأمريكى نفسه يعرف معنى ما أقول ، ويراه بعينه كل يوم حين يجد الشركات والمؤسسات الفاشلة تغلق أبوابها وينتشر الذين كانوا فيها ليبدأوا "أمريكا" من جديد !!.

(٣)

شاهدت فى التليفزيون الأمريكى لقطات غير متتابعة (بسبب انشغالى عن متابعتها بعض الأيام) عن قضية أقامها بعض الموظفين الأمريكيين ضد شركة يابانية كبيرة فصلتهم من عملهم بإجراءات قانونية سليمة فى الشكل طبعاً - يتهمونها فيها بالظلم والتحيز لليابانيين . تسألنى هل كانت الحلقات مُوجهة ؟ أقول لك : نعم .. ولكنها كانت موجهة ضد هؤلاء الأمريكان . أيما كان الأمر وانتصر المحامون لهذا الطرف أو ذاك فمن الواضح جداً أن الشركة كانت على حق .

لا شك أن الدفاع عن الأمريكيين كان ممتازاً ، وقد استطاع محاميهم أن يحرج ممثل الشركة اليابانية مرة تلو مرة ، ولكن الحقيقة التى قدمها العمل الفنى كانت أن هؤلاء المفصولين يبتزون الشركة اليابانية . أنا لا أعلم كيف انتهى العمل الفنى على شاشة التليفزيون . ولا أعلم الهدف الذى كان وراء هذا

المسلسل ولا أعلم من الذى أنتج العمل . ولكنى أشهد لك شهادة لوجه الله أن كمية الصدق الفنى فى العمل كانت خير ما فى العمل كله .. ربما ترك العمل الفنى فى نفسك أنه ضد الأمريكيين .. ولكن الحقيقة التى لا بد أنك ستدركها بعد برهة قصيرة أن العمل الفنى كان يهدف إلى مصلحة الأمريكيين لأنه كان يوقظهم لا أقول من النوم ، ولكن من حلم بسيط من أحلام اليقظة المستمرة التى كاد انتباهها يضيع، ولا أقول ضاع منها انتباهها .

وأعود لأتحسر على مسلسلات التليفزيون العربى وأقول .. «هكذا ينبغى أن يكون الفن» أو على الأقل .. هكذا ينبغى أن يكون بعض الفن! لكى يبقى بعض آخر للإمتاع ، وبعض آخر للمؤانسة ، وبعض آخر للفن نفسه! .

أريد بعد كل هذا الحديث أن أنقل لك عبارة قرأتها الآن وبعد كتابة هذا الحديث بشهر أو أكثر تؤكد هذا المعنى ، الذى سوف أقوله : « إن أمريكا ليست لأحد» ، العبارة منسوبة إلى أحد قضاة محكمة الإستئناف فى كاليفورنيا واسمه "رينوسو" (Renoso) وهو أحد الذين تولوا وضع سياسة الهجرة إلى أمريكا ، وهو يتحدث فيها عن وحدة الشعب الأمريكى فيقول : « ما كان الأمريكيون اليوم ..وما كانوا فى أى يوم من الأيام أمة واحدة لغوياً أو عقائدياً.. إن أمريكا وحدة سياسية فحسب ، وليست وحدة ثقافية أو لغوية أو دينية أو قومية » .

(٤)

هل الأمريكيون مُرْهَقون أم مُرَفهون ؟ هل يعمل الأمريكيون أكثر مما يستمتعون بحياتهم ؟ أم هم يستمتعون بحياتهم أكثر مما يعملون؟ أم هم يوازنون بين المتعة والإجهاد فى كفتى الميزان ؟ ربما يكون حكمى مجانباً الصواب لأنى سأتحدث عن طائفة الأطباء وهى طائفة يصدق عليها الوصف

القائل إنها محترفةٌ عمل أو محترقةٌ عملاً فى كل مكان سواء فى أمريكا أو فى مصر .. وحتى إذا تحدثت عن الممرضات أو السكرتيرات الطبيبات فإنى أتحدث عن نفس المجال تقريباً ، فالعاملون فى المهن الطبية الموازية أو المساعدة يكتسبون مع الوقت قسوة الأطباء على أنفسهم ، ولكنى مع هذا كله وفى هذه النقطة بالذات أستطيع أن أقول لك إن المجتمع الأمريكى قد استطاع أن يجبر الأطباء على بعض الراحة .. تسألنى كيف حدث هذا ؟ فأعطيك بعض الأمثلة لبعض الوسائل التى نفذ بها المجتمع سياسته غير المنظورة .

الوسيلة الأولى أن عطلة نهاية الأسبوع السبت والأحد مقدسة تماماً ، مع أن الطب لا يتوقف عن العمل كما هو معروف ولا بد من أن يكون من بين الأطباء نوبتجى فى المستشفى .. وفى ظل أن العمل فى عطلة نهاية الأسبوع إجبارى ومحدد لكل طبيب كل عدة أسابيع فقد أصبح الأطباء بالتالى يستمتعون بالعطلات الأخرى المتاحة لهم ، أى أنهم أصبحوا يفقدون عطلة ليستمتعوا بثلاث عطلات .. بعد أن كانوا يرتبطون بالعمل ربع الوقت مثلاً أو عشر الوقت فى نهايات الأسابيع .. وأحب فى هذا المجال أن أضرب مثلاً بنفسى ، فلم يحدث أننى فى حياتى عرفت نظاماً محدداً للراحة يوم الخميس والجمعة إلا فى الشهور التسعة التى كنا فيها ثلاثة نواب فقط فى قسم القلب بطب الزقازيق وكان على كل منا أن يتولى أمر الخميس والجمعة كل ثلاثة أسابيع... بالنسبة لى كنت أقضى عطلة فى النوبتجية ، وعطلة فى القاهرة الثقافية ... وعطلة ثالثة بعيدا عن القاهرة، وظللت منتظماً على هذا الحال طيلة تلك الشهور التسعة ، ولم اتمكن أبداً من أن امضى على هذا النحو المنظم بعد ذلك !.

عذراً نعود إلى الأمريكيين فنجد أن عمل الفريق يُجبرهم على العمل فى أوقات محددة إذ ليس الفريق متاحاً فى كل حين ، بل يصعب تماماً تشغيله فى

غير أوقـاته .. وهكـذا أصبح على الأطباء الـذين يمارسـون تقنيات معينـة أن يعرفـوا أن الساعات الأربع والعشرين التـى يعطيها الله لنـا كل صباح ليست للعمل المتـواصـل ، وإنما هى لأشيـاء كثيرة منهـا العمل الـذى تحدد وقتـه بالدقيقة من قبل لأنه مرتبط بفريق كامل .

الوسيلـة الثانية التى استطـاع بها المجتمع الأمريكى أن يبعـد الأطباء عن العمل القـاتل هى الخروج بالأطبـاء من أمـاكن عملهم من حين لآخر وبكثـرة ربما تقول عنهـا إنها فاقت المعقـول أو المطلوب . فالنـدوات دائماً فى الفنادق، والمؤتمرات الدوريـة دائماً فى أماكن متبـاعدة ، وكـل عام تعقد جمعيـة القلب الأمريكيـة ندوتها فى مكـان غير الذى عقـدت فيه نـدوتها السابقـة ، والمؤتمر أسبـوع كـامل الاشتراك فيـه شبه إجبـارى وهـذا لا يعنى أن جميع الأطبـاء يـدفعون الاشتراك . والأطبـاء فيـه متوقفـون عن العمل فى مستشفيـاتهم إلا لحالات الطوارىء التى يقوم بها حوالى ١٠٪ فقط من القـوة البشرية المتاحة.. وكلية أطباء القلب هى الأخرى لها أسبوع آخـر ، ربما أنتهز هذه الفرصة الآن لأحدثك عن النشاط العلمى المفروض على أطباء القلب ولعلك لاحظت فى الفقرة السابقـة أن هناك جمعيتين علميتين : جمعيـة أطباء القلب الامـريكيين والكلية الامـريكيـة لاطباء القلـب. هذا غير جمعيـات ضغط الـدم ، واختـلال النظم ، والفسيولـوجيا الكهـربية ، والمهمازات والموجـات فوق الصـوتية والتصـوير الصبغى ، والرنين المغنـاطيسى ... الخ الخ) فإذا كـان الطبيب مهتماً بمجالين فقط من هذه المجـالات العشرة إلى حد أنـه يشـارك فى اجتماعـاتها ومؤتمراتها فإنـه مجبر على أن يترك العمل الـروتينى إلى أمـاكن بعيـدة عن بيتـه وعن مستشفاه لأربعة أسابيع على الأقل كل عام .

ولكنى مع هذا أعتقد أن هناك من الـوسـائل ما هو قادر فى المستقبل على أن يمنع الأطباء من قتل أنفسهم ، أعتقد مثلاً أن ثقـافة الأبناء فى الأجيال الـجديدة

كفيلة بجذب آبائهم معهم إلى المتاحف والأوبرا والمسرح والسينما حينما يزداد رقى هذه الفنون و ابتعـادها عن التكرار وحرصها على الفن الـرفيع والتجديد والإبتكار حتى تحتفظ لنفسهـا بمكان فى عصر الفيـديو والكمبيـوتر، أحب أن أقول إن الأجيـال الجديدة محظوظة تمامـاً أو سوف تكون كذلك بعـد ضياع الأجيال التى مرت بالبشريـة طيلة النصف الثانى من القرن العشرين .. وأحب أن أسجل من الآن مـا بدأت ألحظـه تحت الرمـاد من أن هذه الأجيـال سوف تكون قـادرة على توجيه الأجيـال السابقة عليهـا إلى كثير من أنماط السعادة والرقى . اعتقد كذلك أن التطوير الـرائد فى مناهج الدراسة والتزايد المستمر فى إقبـال المهنيين والمشتغلين بالعلـوم المختلفـة على الإنسـانيات سـوف يُفسح المجال لإنسـان أكثر رقياً وبالتـالى لطبيب أكثر إنسانية مع نفسه . واعتقد أن وسائل الإعلام جميعـاً ستفقد مع الزمن الحمى التى تفـرض عليها السطحية والإثـارة وستكـون فى المستقبـل حريصـة على الهدوء والـرؤيـة والتعمـق وسـوف يتأثر بها الناس أيضاً . و أعتقـد أيضاً أن الحاجة الملحة إلى كثير من الإنفاق وكثير مـن العمل من أجل تدعيم وتـوسيع قواعـد الأصول الثـابتة فى المؤسسـات الصحية والطبية على مستوى القطاعين الجماعى والفردى ـ أعتقد أن هذه الحاجـة سوف تخف بعض الشىء بما سوف يكون متـاحاً ومتراكماً من أصول ثـابتة ضخمـة أنفق القرن العشرين معظم أربـاحه على بنـائها أو تسديد ديونها .

(٥)

أحب أن أحدثك بعد هذا كلـه عن ثراء الأمريكيين . هل زاد ثراؤهم أم أنهم كما يحب الناس فى بلـدى أن يتصوروهم بـدأوا يعانـون المعانـاة التى تنتهى (بعد عمر طويل) بالفقر .

لو كنت زرت أمـريكا فى ١٩٥١ أو ١٩٦١ أو ١٩٧١أو ١٩٨١ ثم زرتـها فى ١٩٩١ فسوف تحس أن أمريكا أصبحت حـذرة فى إنفاقها ، وأصبحت تشكو بصوت مرتفع من أنها لا يجب أن تنفق على هذا البند مثلاً كل هذا الإنفاق ، أو أن التأمين الصحى غير قادر على تغطية نفقات علاج ٣٨ مليون أمريكى، أو أن معظم نفقات الإدارة الأمريكية يمكن اختصـارها احتياطاً للمستقبل .. لن تنجو من أن تطالع هذه الأفكار صباح مساء كل يـوم فى كل جريدة وكل تقرير تطلع عليه ، ولن تنجو أيضـا من سماع هذه العبارات فى دردشتك مع الأمريكان أينما كـانوا ، ومع كـل هذا تتأمل ثـروة الأمـريكى فتراهـا تزداد يـومـاً بعد يـوم ، وتتضخم ، ترتفع الـودائع فى بنوكهم كما لم يسبق لها أن تـرتفع ، وأصولهم الثابتة تتضـاعف بما لا يحتاج إلى إحصاء ، وأكثر من هـذا فإن الدولار أصبح يمثل بالنسبة للاقتصاد العالمى أكبر بكثير مما كان يمثل فيما مضـى ، ولك أن تقارن بين سعر الدولار اليوم بالنسبة لأى عملـة ، وبالنسبة لذات العملة منذ عشر سنوات فإذا أنت تجد الدولار هو الـرابح .. وحتى فى الأحوال القليلة التى ينهار فيها الدولار أمام عملة أخرى فإن الدولار وأصحاب الدولار يفعلون هذا من أجل عيـون الدولار .. يغرون أثـرياء منطقـة ما حتى يحولـوا أموالهم إلى الدولارات بما يقدمـون عليه من رفع سـعر الفائدة ومـا إلى ذلك من المغريات ، ويدعمـون الدولار حتى لا يكف عن الارتفـاع حتى إذا وصلوا إلى نقطـة ما لا يعرفها سوى خالقهم هبطوا به فجأة فهبطوا بكل قيم الأشياء التى تحولت إلى دولار ، وهم المستفيدون فقط .. لأنهم حصلـوا على كل ما يـريدون بـالدولار العالى .. ثم أصبح الدولار فى أيـدى الناس من حولهم رخيصاً !!. غايـة ما أريد أن أقوله لك هـو أن الأمريكان أصبحوا اليـوم أكثر وعياً فى إنفاقهم ممـا كانوا عليه من ذى قبل.. أريد أن أقول لك ذلك حتى أصحح لك ما قد يترامى إلى ظنك من أنهم أصبحوا أقل ثروة عما كانوا عليه من قبل !!!.

(٦)

دعنى الآن أحدثك عن كتـاب شيق أتيح لى أن أطالعه هـذا الأسبوع ولكن لابأس أن ألخص لك الفكـرة التى فيـه . الكتاب اسمـه :ـــ (الأجيال . تـاريخ مستقبل أمـريكا «١٥٨٤ ـــ ٢٠٦٩) Generations : The History of America's Future(1584 - 2069) المؤلفان هما شتراوس (٤٤ عاماً)ـ ونيل هوى (٣٩ عاما) والكتـاب صـدر عن دار نشر Morrow ويباع بحـوالى ثلاثـة وعشرين دولاراً، وتخلص الفكرة التى عمد إليهـا المؤلفان أنهم قسموا أجيال أمـريكا إلى ثمانية عشر جيلاً وذلك بأن جعلوا الجيل الـواحد ٢٢ عاماً ـ (معلومـاتى السابقة أن بعض علماء الاجتماع اعتمدوا ٣٣ عاماً فى المتوسط بحيث يصبح القرن ممثلاً لثلاثـة أجيال) ، ولـم يصنفـوا الناس حسب انجـازاتهم وتواريخهـا ، ولكنهم أخذوا الزعماء والبارزين بتواريخ ميلادهـم ـ هل تعرف ماذا يعنى هذا ؟ أبسط لك الأمور وأضرب لك بمصر مثلاً كنت كثيراً ما استعمله لإثارة لمحات المقارنة الصحيحة فى حديثى السياسى مع بعض من تحدثت إليهم ، ولا أذكر إن كنت قد سجلت هـذه الفكرة فى مقال أو كتـاب لى من قبل أم لا ، كنت أقول إن مصر حُكمت طيلة الفترة من ١٩٣٦ وحتى ١٩٨١ (حوالى نصف قـرن) بثلاثة من مواليـد ثلاث سنوات متتـالية ـ فقـد ولد الملك فاروق فى ١٩٢٠ ، و ولـد عبد النـاصر فى ١٩١٨ ، و ولـد أنـور السـادات فى ١٩١٩ (فى بعض الأقـوال فى ١٩١٨) كنت أورد هذا القول فى التدليل على عـدة معان :أولاً : أن رجال الثورة لم يكونوا صغار السن حين تولوا الحكم فقـد سبقهم إليه ومنذ ١٥ عاماً ملك أصغر منهم فى السن كان فى كثير من الأحوال حريص على أن يحكم لأنه يملك ثـانياً : إن الحكمـة الزائدة التى تميـز بها أنور السـادات كانت تعتمـد ضمن ماتعتمد على عـامل السن إذا ما قورن بعبد النـاصر أو بفارق السن (مع عدم إغفال الجوانب الشخصيـة فى كل منهم جميعاً) مـا علينا من هـذا الاستطراد الذى يجب أن أعتذر عنه وهـأنذا أعتذر!!

شتراوس و هوى يـاسيدى يذهبـون إلى أبعد ممـا أذهب بكثير جداً ، إنهم يقسمـون الأمـريكان منـذ ١٥٨٤ وحتى أوائل القـرن الحادى والعشرين إلى ثمانية عشر جيلاً لكل جيل ميزة واسماً مميزاً ويأخذون لكل جيل شخصاً من المشاهير الذين ولدوا فى الفترة الزمنية التـى حددوها للجيل ليجعلونه «العينة» ـ عينة الجيل ـ إلى هنا والأمر بسيط أو قل إنه بسيط.

لكن شتراوس و هوى ينظـران إلى الأمور من زاويـة أخرى هى زاويـة ما نقول عنه الدورات ـ أو ما قالـه مؤرخ عظيم ملخصاً فلسفته فى التاريخ ـ من أن التاريخ يعيد نفسه . و هكـذا فإن المؤلفين يضعان كل أربعة أجيال فى دورة وتتعاقب الدورات ـــ فالدورة الواحدة على هذا تضم أربعـة أجيال : الأول هو جيل **المثاليين** ثم يليهـم جيل **الفاعلين** ويليهم جيل **المدنيين** وتنتهى الدورة بجيل **المتاقلمين** لتبدأ بعـد ذلك دورة جديـدة تبدأ بـالمثاليين ثم الفـاعلين ثم المدنيين ثم المتأقلمين .. دعنى ألخص لك الـدورات والأجيال وصفـات الأجيال وعينات هذه الأجيال خلال الصفحتين الآتيتين :

الدورة الأولى : المستعمرون Colonial ولك أن تترجمها بالاستعماريين، أو سكان المستعمرات والدورة الثانية دورة الثورة ، والدورة الثالثة دورة الحرب الأهلية ، والـدورة الرابعة دورة القـوة العظمى والدورة الخامســة هى الدورة التى نعيشـها الآن !!

فلنبدأ بالدورة الأولى ، فى هذه الدورة وهى التى تضم بالطبع أربعة أجيال الجيل الأول هـو جيل البيـوريتـان Puritan والبـوريتـان كما نعلم هم القـوم الحريصون على التطهـر من كل الأدران والخطايا إلى حـد التزمت ، وفى الأدب العـالمى نقرأ هـذه العبارة فى وصف بعض مجتمعـات أو أشخاص العصـور الوسطى ـ هؤلاء بـالطبع مثاليون ـ وهم بداية الدورة وهـؤلاء يمثلون مواليد الفترة من (١٥٨٤ ـ ١٦١٤) وعينة هؤلاء : جون ونتروب .

الجيل الثانى (١٦١٥ ـ ١٦٤٧) جيل الفرسان Cavalier هؤلاء بالطبع وكما يتضح حتى من تسميتهم فاعلون إيجابيـون ـ وعينة هؤلاء هو انكـريز ماذر وسوف أحدثك عنه بعد قليل .

الجيل الثـالث (١٦٤٨ ــ١٦٧٣) جيل المتألقين Glorious وهؤلاء بالطبع وكما يتضح من اسم جيلهـم يمثلـون المرحلـة الثـالثــة من الـدورة الأولى ، وصفتهم بـالطبع أنهم مدنيـون ، وعينــة هـؤلاء هو كوتـون ماذر وهـو ابن انكـريز وســوف أحـدثك عنه وعن أبيـه وجـده بعـد قليل . والجيـل الـرابع (١٦٧٤ ـ ١٧٠٠) هو جيل التنويرEnlightenment وهـم قوم متأقلمون يمثلهم وليام شيرى .

دعنى أحدثك عن أقطـاب هذه الدورة الأولى وسأبدأ بالحديث عن العائلة التى تضم قطبين هما قطبـا الجيلين الثانى والثـالث فى الـدورة الأولى . عائلـة ماذر هذه تمثل عصراً كـان فيه رعاة الكنيسة فى مسـاتشوستس هم القادة فى الحياة العـامة والعقليـة . أما ريتشـارد ماذر (١٥٩٦ ــ ١٦٦٩) فقد ولـد فى لانشسـتر بإنجلترا وتعلم فى أكسفورد، وسببت له أفكاره البيورتانية مصاعب مع الكنيسة الإنجليـزية ممـا أبعده عن تولى المسئولية ، وقـد ترك إنجلترا فى ١٦٣٥ وبدأ حياة جديـدة فى مسـاتشـوستس ومنذ ١٦٣٦ وحتى وفـاته ظل راعيا للكنيسـة الطائفية أو الإبراشـية Congregational فى دورشسـتر وهو الذى ألف كتاب المزامير الـذى يسمى Bay Psalm book . و أما انكـريز مـاذر الذى اختاره المؤلفـان عينة للجيل الثـانى (١٦٣٩ ـ ١٧٢٣) فهـو ابنه ــ وقد عمل راعياً لكنيسـة بوسطن الشمالية (أو الثانية) منذ ١٦٦٤ وحتى وفاته ، وكانت له محاولات مشهورة جعلته بمثابة العدو الأول لأى نوع من التحديث فى نظام نيو انجلنـد كنيسة أو حكومـة ، وقد عارض بقـوة أولئك الذين أرادوا تحديث

نظام الكنيسة أو قوانين التطهر وقضى ماذر أربعة أعوام فى لندن فيما بين ١٦٨٨ و ١٦٩٢ عند وليام الثالث حتى حصل منه على موافقة بتوحيد بليموث ومساتشوستس . وعمل ماذر مديراً لجامعة هارفارد فيما بين ١٦٨٥ و١٧٠١ وكان قريباً من الباحثين والعلماء على الرغم من تحفظه الدينى والسياسى، وساند من موقعه كمدير للجامعة حملة التطعيم ضد الجدرى ، وكان هذا بالطبع موقفاً غريباً من رجل دين على مثل مذهبه، يهمنى أن أذكر لك أن انكريز ماذر ولد حقيقة فى دورشستر لأن أباه كان فيها منذ ١٦٢٥ كما ذكرت لك فى الفقرة السابقة. ولكن انكريز ماذر درس فى هارفارد كما درس فى كلية ترنيتى فى دبلن ، وقضى سنوات طويلة من حياته مبشراً فى الجزر البريطانية .

أما كوتون ماذر الذى اختاره المؤلفان عينة للجيل الثالث فهو ابن انكريز وحفيد ريتشارد وقد رُسم كاهناً فى ١٦٨٥، وقد أصبح بذلك مساعداً أومشاركاً لوالده فى كنيسة بوسطن الشمالية ، وتولى منصب راعى الكنيسة حين سافر والده إلى لندن كما ذكرنا .. ثم تولى مسئولية الكنيسة بعد وفاة والده . وقد ألف كوتون ماذر هذا ما لا يقل عن ٤٥٠ كتابًا وقد تأثر بنيامين فرانلكين بأحد كتبه وهو كتاب Essays to do God الذى ألفه ١٧١٠ ، وكان كوتون كوالده صديقاً للعلم والتعليم ساعد فى إنشاء كلية بل وكان أول أمريكى ينتخب زميلاً للجمعية الملكية فى لندن ، ومثل هذا الشرف يعطيك فكرة عن هذا التألق الذى يمثله كوتون ماذر الذى ترى صوره فى القواميس والموسوعات الأمريكية معبرة تماماً عن هذا التألق . هذا وقد ولد كوتون فى بوسطن.

بقى أن أحدثك عن وليام شيرى ، وقد ولد ١٦٩٤ فى إنجلترا وتوفى عام ١٧٧١ ، وقد عمل كحاكم للمستعمرة مساتشوستس فيما بين ١٧٤١

و١٧٦٥، وتولى لفترة قصيرة قيادة القوات البريطانيـة فى شمال أمريكا . كان مسئـولاً عن الاستيلاء على لـويـزبورج فى ١٧٤٥ فى أثنـاء الحرب الفرنسيـة الهندية وعنـدما ضمت إنجلترا مساتشوستس إلى جـانبها فى الحرب استطاع شيرلى تحرير النظـام النقدى وإصلاحه . وقـد تولى حكم جزر الباهـاما فيما بين ١٧٦١ و١٧٦٧ .

دعنا نتحرك إلى الدورة الثانية دورة الثورة Revolutionary وفى هذه الدورة هى الأخرى أربعة أجيال .

الجيل الأول جيل اليقظة أو الصحوة Awakening (١٧٠١ ـ ١٧٢٣) وعينة هـذا الجيل الرجل العظيم بنيـامين فـرانكلين الذى لا شك أنك تعـرفه ، وهـذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى جيل الحرية Liberty (١٧٢٤ ـ ١٧٤١) وعينة هذا الجيل هو الرجل العظيم جورج واشنطـن الذى لا شك أيضـا فى أنك تعرفه ، وهذا الجيل بالطبع جيل فاعل .

الجيل الثالث جيل الجمهوريين Republican (١٧٤٢ ـ ١٧٦٦) وعينـة هذا الجيل هو الرجل العظيم توماس جيفـرسـون ، وهذا الجيل بالطبع جيل مدنى، يؤسـس دولة ومؤسساتها .

الجيل الرابع جيل التوفيق Compromise وهؤلاء ولدوا فيما بين (١٦٦٧ ـ ١٦٩١) ويمثلهم أندور جاكسـون ـ وهؤلاء الموفقون بالطبع قوم متأقلمون.

استطيع أن أؤكـد لك الآن ياسيـدى القارىء أنك قـد بدأت تتفهم فلسفـة المؤلفين فى هذا الكتاب ـــ ربما لأن معرفتك بهؤلاء الرجال الـذين يمثلون عينة الدورة الثانية ـ دورة الثورة تفوق بالطبع معرفتنا ومعرفة كل الناس بالدورة

الأولى حيث كانت أمـريكا لا تزال فى ظلام المستعمـرات أو تحت تأثير ضبابها الذى لم ينقشع بعد .

دعنا نمضـى مع المؤلفين مع جيل الدورة الثـالثة دورة الحرب الأهـــلية Civil War هـذه الدورة يـاسيدى تضـم ٣ أجيـال فقط ، فليس فى دورة الحرب وقت للمدنيين ، أقصد ـــ بل يقصد المؤلفان ـ أن أحداً من الـذين ولدوا فى أثناء الحرب لن يكون مدنياً .

الجيل الأول (١٧٩٢ ـ ١٨٢١) جيل ماوراء الماديات هكذا أفهم قصده من تسمية هذا الجيل بجيل Transcendental ربما جاءنى الفهم من عينـة هذا الجيل وهو الرجل المحبب إلى قلبى إبـراهام لنكولن الرئيس الســادس عشر للولايات المتحدة الأمريكية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) هذا الجيل بالطبع جيل مثالى .

الجيل الثانى وهـو جيل فاعل حسب تطـور الدورة هو مـواليد الفترة من (١٨٢٢ـــ١٨٤٢) وعينتهم هو أولـزسيـز جرانت وهـو جيل المُذّهبين Gilded وجرانت هو الرئيس الثامن عشر للولايات المتحدة الأمريكية ، ولد ١٨٢٢ وتوفى ١٨٨٥ وتولى الرئاسة فيما بين ١٨٦٩ ـ ١٨٧٧ وهو مـن مواليد أوهايو وهو الـذى قاد قـوات الحلفاء إلى النصر فى ميســورى عام ١٨٦٦ وعين قـائداً أعلى للقـوات الأمريكيـة فى ١٨٦٤ ثم سرداراً للقـوات الفيـدرالية تحت قيـادة لى فى ١٨٦٥ ثم انتخب رئيســاً لدورتين رئاسيتين وأخفق فى الترشيح للثــالثة وقـد جاءته السياسة من باب النجاح العسكرى الذى حققه ، وقد تكونت شخصيته بفضل العـزم والدقـة والثقـة والقدرة على التعلـم من التجارب ولكن المعيتـه العسكريـة لم تكن قادرة على حل مشـاكل الأمة .. هكـذا يقول الأمـريكان عن قـائدهم فى ١٨٧٠ قبل أن يقـول البريطانيـون عن تشـــرشل فى ١٨٤٧ نفس

الكلام، وأعداؤه يقولون عنه إنه رئيس ضعيف ويكاد المؤرخون يوافقونهم على ذلك .

الجيل الثالث والأخير فى هذه الدورة (١٨٤٣ ـــ ١٨٥٩) وهو جيل التقدميين Progressive جيل متأقلم ويمثل هؤلاء الرئيس تيودور روزفلت.

تبدأ بعد هذا كله الدورة الرابعة دورة القوى العظمى . وأول أجيالها (١٨٦٠ ـ ١٨٨٢) هو جيل المبشرين أو رجال الإرساليات ـ وهم مثاليون [حسب تقسيم المؤلفين] ويمثل هؤلاء فرانلكين روزفلت . ثانى أجيال هذه الدورة (١٨٨٣ ـ ١٩٠٠) يطلق عليهم المؤلف تسمية الجيل الضال أوالضائع Lostـ وهم فاعلون ـ ويمثل هؤلاء دوايت أيزنهاور . ثالث أجيال هذه الدورة (١٩٠١ ـــ ١٩٢٤) جيل مدنى ـــ وهذا هو الجيل الذى نعرف كثيراً من شخصياته ـ بل إن من هذا الجيل الرئيس الأمريكى الحالى بوش، ومنه أيضا معظم الرؤساء الأمريكيين الذين عرفناهم فى السنوات الماضية ، عينة هذا الجيل عند المؤلف هو الرئيس العظيم جون كنيدى . رابع أجيال هذه الدورة (١٩٢٥ ـ ١٩٤٢) جيل متأقلم ـ ويسميه المؤلف جيل الصمت ـ ويأخذ عليه مثلاً والتر مونديل ، نائب الرئيس الأمريكى الذى تراه أنت وكل العالم اليوم يحظى بإنتقاد الأمريكيين لأنه لا يفعل شيئاً ..

أما الدورة الخامسة فأول أجيالها هو جيل الازدهار Boom (١٩٤٣ ـ ١٩٦٠) وهو جيل مثالى عينته عند المؤلف هو نويت جنجريش .

ثانى أجيالها هو الجيل الثالث عشر Thirteenth لم يسمه حتى الآن إلا بهذا الأسم وهم مواليد (١٩٦١ ـــ ١٩٨١) ومن المفترض أن يكونوا فاعلين. ويأخذ عليهم مثلاً توم كروز وهو فنان أمريكى ناشىء محبب إلى قلوب الأمريكيين .

ثالث أجيال هذه الدورة هم مواليد (١٩٨٢ ـ ٢٠٠٣) من المفترض أن يكونوا مدنيين ــ والمؤلفان يعجزان عن تسمية هذا الجيل فيأخذان له اسم الدورة نفسها . وآخر الأجيال هو الجيل الذى لم يولد منه أحد بعد (٢٠٠٣ ـ ٠٠٠٠٠) ليس له اسم بعد . وليست له صفة وليست له عينة !!.

هل قصدت من استعراضى معك لهذه الدراسة كلها على هذا النحو أن أبين لك أن الأمريكيين ليسوا المثاليين فحسب ، وليسوا الفاعلين فحسب ، وليسوا المتأقلمين فحسب ، وليسوا المدنيين فحسب ولكنهم مزيج من تعاقب كل هذا من لدن مولدهم وإلى حين تبرز صفاتهم فى أعمالهم الجماعية فتصبغ الأجيال والحقب الزمنية بما نراه واضحاً ومؤثراً فى التاريخ المعاصر. وعلى أية حال فإن هذه الدراسة نموذج للدراسات التى تتناول التاريخ الاجتماعى من منظور يحاول أن يفهم تعاقب الحوادث فى ضوء فلسفة قد تخطىء وقد تصيب ولكنها تجيب عن سؤال لماذا حدث وكيف حدث بطريقة تهيىء الأذهان لقراءة تاريخ المستقبل .

وتاريخ المستقبل شىء مهم جداً ، رغم أنى من أشد المقتنعين بأنه من المستحيل أن يمضى الزمن بطريقة خطية (Linear) فنفترض مثلاً زيادة فى الدخل إلى ١٢١٪ فى العام القادم إذا كان العام الماضى قد حقق فى نفس الظروف الزيادة إلى ١١٠٪ . نعم أنا من أشد المعارضين لمثل هذا التفكير الخطى ولكنى مع ذلك من أكثر المحبذين لاستعماله لبناء إطار أولى ـ وخط تمهيدى فحسب . نعم لن يصدق ولكن لا بد من وجود معيار نقيس به قيمة نفترض وجودها حتى إذا كنا متأكدين تماماً من أنها لن تكون هكذا .. لأن هذا عندى أفضل من العدم ! .

(٧)

أحب أن أحدثك الآن بشىء من التفصيل أو الإيجاز لا أدرى ، عن حياة

الأمريكيين اليومية اليوم!! ربما أبدأ بـالإسكان وخاصة إذا كان المؤلف من بلد لا يعانى من شيء مثل معاناته من الإسكان!! سنتحدث كثيراً بالآكر ، فلا بد لك من أن تعرف كم يساوى الآكر ACRE الآكر ياسيدى مقياس مساحة وهو يساوى ٤٣,٥٦٠ قـدماً مـربعا أو ٤٨٤٠ يـاردة مربعـة أو ١٦٠ عموداً rods مربعاً . والآكر ياسيـدى مربع الشكل كل ضلع من أضلاعه يساوى ٢٠٨,٧ قدماً . وفى النظام المترى الذى نعرفه جميعاً ياسيدى الآكر يساوى ٤٠٤٧ متراً مربعاً . [تذكر أن الفدان يساوى ٤٢٠٠ متراً مربعاً تقريباً] أى أن الآكر يمثل ٩٦,٣ ٪ من الفدان تقريباً وفى هذا النظـام فإن الهكتار يساوى ٢,٤٧١ آكر . وفى الموسوعـة التى رجعت إليها لأنقل عنهـا هذه المعلومـات ـ وهى موسـوعة كتاب العالم ـ الناشر Field Enterprises Eductional Corporation شيكاغو . فى هذه الموسوعة رسم توضيحى يبين لك كم يساوى الآكـر بمساحة البيوت المقسمة (البلوكـات) فى أمريكا .. وأنت ترى فى هـذا الرسم أن الأكر يساوى المسـاحة التى يحتلهـا سبعة بلوكـات كل منها ٥٠ قـدماً × ١٢٥ قـدماً . سأقـرب لك المسألة بالنظام المصرى (المترى) . تصور بيوتا متلاصقة من اليمين والشمال على صف واحـد لكل بيت منهـا واجهـة طـولها ١٥ متراً وتمتد هـذه البيـوت متـوازيـة جميعاً فى العمق بطـول ٣٧,٥ متراً إذن فكل بيت من هـذه البيـوت مسـاحته ٥٦٠ متراً تقـريبـاً الآكـر ياسيـدى هـو سبعة مـن هذه البيـوت الضـخمـة الفخمة .

تصور أننـا أخذنا كل بلوك مـن البلوكات فقسمناه قطعتين (على طـريقة رأس البر مثلاً) كل قطعـة ٢٨٠ متراً إذن هذه المسـاحة على طريقـة الإسكان الإقتصـادى تكفى ٣ شقق (أحيـانا ٤ ونـادراً ٢) ومثل هذه البيـوت الأربعة عشر تكون مع بعضـها آكر واحد .

تعـال نتأمل حال الأرض الـزراعيـة فى مصر تتحول إلى أرض مبـانى أنت تعرف أن الفدان ٢٤ قيراط ـ الأكر يساوى على أقل تقدير ومع الإكرام الواجب لك ـ ٢٣ قيراط ، وعـادة فإن الفدان يمكنه أن يهيىء أرضاً لإقـامة ٢٤ بيتاً أو ١٦ بيتـاً من مستـوى أرفع . قل أن الأكـر يهيىء ٢٣ بيتـاً أو ١٥ بيتـاً من مستوى أرفع وقارن ذلك ببيـوت الأمريكان التى أحدثك عنهـا الآن . خذ مثلاً ياسيدى هـذا البيت الصغير الذى أسكنه ـــ طابقه العلوى ثـلاث حجرات نوم فقط وحمام . فى طابقه الأول حجرة استقبال وحجرتا نوم ومطبخ وحمام . هذا البيت ياسيدى يتمتع بأرض واجهتها خمسون قدماً على شارع رئيسى وله فى العمق أقصد لأرضـه فى العمق ٢٢٥ قدمـاً . إذن فهـذا البيت يملك من الأرض ٥٠ × ٢٢٥ قدمـاً وهـو مـا يزيد عن ربع فـدان !! هذا الـربع فـدان فى ريف مصر كاف لإقامـة ستة بيوت على الأقل فيها من الحجـرات أكثر بكثير مما فى بيوت الأمريكان .

أظنني الآن قد وصلت معك إلى تصور قائم على المقارنة ، ولعل صورة هذه البيـوت الجميلة المتنـاثرة على المســاحات الخضراء الممتـدة قد اتضحت أمـام ناظـريك الآن . كل بيت يطل على الجهات الأربعة . أمـامه الشارع الـذى يأخذ منه رقمه ، ووراءه مـائتا قدم على الأقل منها مائة قـدم يمتلكها فضاء تتصل بمائة قدم فضـاء أخرى هى التى تمثل عمق البيت المناظـر المطل على الشـارع التالى . وعن يمين وعن شمال فضـاء مرصوف بعضـه لتمـر منه السيارات إلى الجراج خلف المنـزل ، هذه هى البيـوت ياسيـدى . ليس هنـاك بيت فى مدينـة مرتفعات كليفيـلاند كلها شذّ عن القاعـدة و ارتفع أكثر من دورين ، إنما كل البيـوت حـريصة على نفسهـا لم تصبهـا حمى الهدم والأسمنت المسلح التى تجتاح مصر فيما يشبه الوبـاء الذى يستعذبه المصابون بـه . ويظنون ارتفاع درجة الحرارة المصاحب للحمى نوعاً من التدفئة المركزية غير مدفوعة الأجر .

وكل هــذه المنطقة يــاسيدى مسماة بأسماء إنجليــزية . لى ، كنجستــون ، فيرمــونت ، فايــرهل ، تــايلــور ، كوينستــون ، بــرنستــون ، شارلستــون ، مارلبورو، نورثن بارك ... إلخ .

(٨)

والناس يسكنــون بيوتهم .. لكلٍ بيته ، ولكل بيتٍ صاحبُــه ، وهكذا الحال فى سبعين فى المائة من مساكن الأمريكيين .. وتتبقى بعــد ذلك ثلاثون فى المائة من المســاكن للمــواطنين الذين لا تمكنهــم ظروفهم من بنــاء المســاكن أو إلى اقتنــائها إلا بعــد حين .. حين يتــاح لهم الدخل أو حين تتــاح لهم الأسرة التى تستلزم مسكناً .. أو حين يتاح لهم الاستقرار .

أحب أن أستأنف هذا الحديث عن بعض جوانب الحياة اليومية فى الولايات المتحدة الأمــريكية لكى تتأمل بنفسك هذه الجنة أو هــذا الجحيم . أنت تعرف مثلاً أن الحياة هنا قامت على مبدأ الاعتماد على السيارات الخاصة . وحين كنا لا نــزال دون العــاشرة كنا (أنــا وأخى أحمد) نستمع بشــوق إلى أى صــديق للعائلــة عاد من أمريكــا فكان أول ما يحكيــه هو أنه لا أحــد هناك إلا ويمتلك سيارة . حتى إن كل العاملين فى فرن الخبز يركبون سيارات من ذوات الأبواب الستة .. لهذا فليس غريبــاً عليك أنك ترى السيارات وكثرتها اللامتنــاهية هنا ولكنك مع هذا تجد الأتوبيســات العامة على فخامتهــا وجمالها وتكييفها قليلة العدد . متباعــدة الزمن فى مرورها عليك .. وعلى سبيل المثــال فإن عودتى من المستشفى إلى البيت فى الأسبوع الأول كــانت تستغرق ربع ساعة بــالتاكسى ولكنهــا تستغــرق مالا يقــل عن الساعــة بــالأتــوبيس رغم أننــا نسلك نفس الشــوارع بــلا اختصار على الإطــلاق . ذلك أننــا فى الأتــوبيس ننتقل مــا بين أتوبيســين أولهما ينقلنا إلى ميدان واسع فسيح ، ولكنه بلا حياة على الإطلاق ،

وهو ميدان دائرة الجامعة ، أو حلقة الجامعة . ثم تنتظر قرابة نصف ساعة حتى يأتى أتوبيس آخر .. هذا إذا عدنا بعد الساعة الثالثة .. أما إذا عدنا قبل الساعة الثالثة (وهو ما لم يحدث) فإننا نكون حينئذ معرضين لانتظار الأتوبيس الثانى قرابة ساعة !! لأنه فيما قبل الثالثة لا يأتى إلا كل ساعة .

لعل أسوأ ما فى الأتوبيس هو ذلك الوقت الطويل الذى تنتظره فيه بين مجموعة قليلة من البشر لا تبعث أبداً إلا على الخوف ، بل والرعب، هل تستأهل المسألة هذا الرعب .. أم أننا من كثرة ما حذرونا (حتى ونحن لا نزال فى أقطارنا)من هؤلاء الأمريكيين أصبحنا نخشاهم بأكثر من اللازم ، ونخشاهم جميعاً الصالح والطالح .. نعم ياسيدى ربما يكون رأيك أننى أبالغ فى قولى أن هؤلاء لا يبعثون على الاطمئنان أبداً . ألا ترى هذه الملابس التى لاتدل إلا على أنهم خرجوا فى سرعة متناهية حين علموا بوجود الضحية (الذى هو أنا مثلاً) حتى يقتلوه ويسلخوه ويعودون بجلده وكل ما فى جلده .. انظر إلى هذه الوجوه ، هل تتوقع من هذه الوجوه أن تستجيب لرجاءاتك حين تصبح ضحية فى أيديهم .. والجأ إلى الله أن يزيل عنى الخوف . ولكن أليس من حقى على نفسى أو من حق نفسى علىّ ألا أرمى بها إلى التهلكة؟ هكذا تتدافع مشاعر الخوف والاطمئنان حتى يأتى الأتوبيس والأتوبيس لا يأتى .. اللهم ارحمنا برحمتك من أنفسنا .. ومن عبادك.

هذه هى أتوبيسات هيئة RTA أى هيئة النقل السريع أو ما يناظر هيئة النقل العام بالقاهرة أو الأسكندرية أو مرفق النقل الداخلى بالزقازيق قد أكون راغباً فى أن أحدثك كثيراً بشىء (لا يخلو فى نظرك) من التحامل على هذه الأتوبيسات وكيف أن نظام النقل الداخلى فى أمريكا لا يرقى إلى أوروبا بعد أن حدثتك عن اتساع الفجوة الزمنية بين كل أتوبيس والتالى له . وربما لم أعبر لك تماماً عن مدى الرعب الذى يعترينى فى زيارتى السابقة لأمريكا أو فى هذه الزيارة حين أقف فى محطة من محطات الأتوبيس ربما وحيداً تماماً وربما

محاطاً بأحد الزنوج أو بعضهم يأتون بحركات لا تبعث إلا على الرعب وقراءة الشهادتين قبل أن تلقى حتفك .. ربما يكون السبب فى كل ذلك أننى مُقلٍ إلى أبعد الحدود فى ركوب هذه الأتوبيسات هذه المرة والمرة السابقة ولهذا فلك أن تأخذنى على أننى صاحب انطباعات ولست صاحب خبرة أو رأى .

ولكننى اليوم فقط بدأت أدرى كم تتكلف الخزانة الأمريكية من أجل بقاء هذه الأتوبيسات فى خدمة الطوائف التى تضطر إليها .. نعم كنت اتحدث إليك فيما مضى من فقرات عن أن الاعتماد هنا على السيارات الخاصة ولكنى لم أستطع توضيح الصورة الحقيقية التى لمستها اليوم وهأنذا أفعل كى أكون أميناً على الصورة .ركبت الأتوبيس من محطة ميدان الجامعة أو حلقة الجامعة (حسب الترجمة الحرفية) ، كانت معى تذكرة من النوع الترانزيت أى التى أركب بها أتوبيسين متعاقبين وهى لا تكلفنى إلا دولاراً واحداً هو كما تعلم لا يسمن ولايغنى من جوع فى أمريكا . ركب معى الأتوبيس شخص آخر . نحن الآن فى أول محطة لهذا الأتوبيس الذى يبدأ فى ميدان الجامعة وينتهى فى البيتش وود.

أنت تعلم من فقرة سابقة أنه فيما قبل الساعة الثالثة لا يأتى هذا الأتوبيس إلا كل ساعة مرة. وبعد الساعة الثالثة يأتى كل نصف ساعة .. وتزداد هذه الفجوة أيام السبت والأحد .. ولا يعمل هذا الأتوبيس بعد الساعة السابعة مساء .. أى أنك لن تجده لا فى الثامنة ولا فى التاسعة ... إلخ . تماماً كأتوبيسات الأقاليم فى مصر منذ عشرين عاماً وربما أكثر من عشرين عاماً وفى أيام الآحاد لا تعمل معظم الأتوبيسات وفى أيام السبت تنتهى دورتها فى حوالى الخامسة وثمان وثلاثين دقيقة !!

تسألنى كيف سار هذا الأتوبيس فى تلك الرحلة . سأحكى لك بالتفصيل الممل ، فقد انتظر الأتوبيس حوالى ٧ دقائق فى محطة البداية فلم يركبه أحد

بعدنا . بعـدنا هذه تعنينى أنا وشـخص آخر فقط ، غير السـائق بالطبع. وبعد محطتين اثنتين نزل الشخص الآخر وبقيت بمفردى .. محطتى كانت السابعة أو الثامنة . لم يصعـد أحد قبلها الأتوبيس وبـالطبع لم يهبط أحد .. قررت أن أكمل رحلتى مع هـذا الأتوبيس إلى نهايـة الخط وطوال حوالى عشريـن محطة يستغـرقهـا خط سير الأتـوبيس لم يصعـد أحـد ولم يهبط أحـد .. إذن هـذا الأتـوبيس قام من ميـدان الجامعـة إلى ساحل البيتـش وود من أجل موعـده فحسب . وتحرك هذه المسـافة كلهـا بطولـه وعرضـه ودخله منهـا لا يتعدى دولاراً واحداً .. أقل من ثمن نصف لتر من الوقود .. لن أقول لك أكثر من ذلك .

ليس لى شأن كما تعلـم بـالبيتش وود إنما كنـت أتتبع مسـار هـذه الأتوبيسـات من بـاب ما نسميه فى الـرحلات «بـالجولات الحرة» ، عدنـا من البيتش وود ، لم يكن ينتظرنا هناك أحـد على الإطلاق ، وبعد تحرك الأتوبيس بدقيقة إذا بسائقه يقف به ، هنـاك وراء الأشجار كانت سيدة تشير إليه كانت فى ملابس الـرياضة القاسيـة ، وكانت فى عقدهـا الخامس أو ربما السادس . وكان السائق يعرفهـا ، وصعدت الأتوبيس بملابسها الريـاضية .. وكان من الواضح أنه ليس معها شىء على الإطـلاق . ربما استغنت بمعرفة السائق لها (وبالتأكيد معرفة المفتش أيضـا) حتى عن أن تحمل الأبونيه الذى يبين أن من حقها الـركوب!! . نعم ياسيدى تبـوأت السيدة مقعدها ، وحـدثت السائق عن رياضتهـا فى ذلك الصباح وبعد خمس محطـات أخرى صعدت سيـدة أخرى بدينـة بإفـراط إلى الحد الذى أثر على قلبهـا بالهبـوط . وتبوأت هـى الأخرى مقعدهـا الذى يبدو أنـه كان مخصصاً لها مـن دون كل المقاعد . وبعـد ثلاث محطات أخـرى صعدت سيـدة سوداء أخـرى . بينها وبين السيـدة البدينـة حـديث متصل بـدأ بـالأمس أو ربما من أمس الأول أو قبل ذلك . والأتـوبيس يمضى بنا حتى جاءت محطتى !! هل الحكومة الأمـريكية مظلومة أو ملتزمة؟

أين يذهب الدعم ياسيدى .. هل هذا إهدار للدعم . الحقيقة أن المظلوم هو شعبنا المصرى الطيب الكريم الذى عانى ومازال يعانى حتى ولو لم نرفع عنه الدعم الهزيل ! .

(٩)

لعلك تريد بعضاً من الحديث عن المرور فى الولايات المتحدة الأمريكية ، بعد ما سمعت عن طرافته . فعلى الرغم من الشوارع العريضة الواسعة والميادين الأكثر اتساعاً فإن هناك كثيراً من القواعد والحدود التى يجب الالتزام بها . وعلى سبيل المثال فإن إشارات المرور فى كثير جداً من الأحيان مهيئة بحيث تقودك إلى الامتناع عن السير فى اتجاه ما وأحيانا أخرى إلى السير فى نفس الاتجاه !! لا تعجب من ذلك فإن فى النظام الأمريكى ما يجعل بعض الشوارع ذات اتجاه واحد فى أيام العمل وذات اتجاهين فى عطلة نهاية الأسبوع، أو فى غير ساعات العمل !! وقد أعدوا أنفسهم لذلك بأن جعلوا الإشارة تتكون من رؤوس أو نقاط مضيئة . تضىء بعضها على النحو الذى تكون به سهما فتعنى المرور وفى ذات الوقت تضىء نفس الإشارة من الجهة الأخرى على النحو الذى تبدو به على هيئة حرف × فتعنى بالطبع عدم المرور.. وإذا كانت الإشارة تعنى المرور كان السهم رمز المرور مضيئاً بالأخضر . أما إذا كانت تعنى عدم السماح بالمرور كان حرف الإكس بالأحمر .و على هذا النحو أيضاً تجد الإشارة للمشاة . حين تخضر فإنها تقرأ لك بالحروف أنك تستطيع المشى . وحين تحمر فإنها تقرأ لك " لا تمش" !!

ومع هذا فإن من حق أى مواطن يمشى على قدميه (أحب أن أقول من حق كل راجل ولكنى أخشى المطبعة أن تصححها كل رجل فيصبح المعنى مشوهاً تماما كأنه ليس من حق السيدات) ، أقول من حق كل من يمشى على قدميه أن

يكسر الإشـارة ويمشى ، وتحترمـه السيارات مع هـذا تمامـاً. أمـا اللافتـات الإرشادية التى تقودك طوال طريقك فهى نموذج حىٌّ للحضارة الأمريكية التى قامت على الوضوح التام الذى لا لبس فيه. الوضوح الذى يعنى التحديد الذى يكـون القول السـائد فيـه هو «وعلى سبيل الحصر » لا «على سبيل المثـال» .. ولأنهم يأخذون الأمور على سبيل الحصر لا على سبيل المثال فإنهم يقللون إلى أدنى قدر ممكن من المسـائل الخلافية والاجتهادية والتفسيرات المتضـاربة .. تلك المسـائل والأمـور التى تحكم اليوم أكثـر من ٩٩٪ من مشكـلات الإدارة المصرية حين تتصدى هذه الإدارة لمسئـوليتها !! بقى أن أذكر لك أنك تجد عند تقـاطع شوارع المدينـة مع الطـرق التى تـؤدى إلى الطرق السريعـة التى تمر بالمدينة مـن خارجها لافتات تذكـر رقم الطريق . والطرق السريعـة فى أمريكا مرقمـة كله ، أو هـى أرقام فحسب ، وقـد انتبهوا عنـد ترقيمهـا إلى أن يعطوا الطرق التى من الجنوب إلى الشمال (أو بالطول كما نقول) أرقاماً فردية . وأن يعطـوا الطرق التـى من الغرب إلى الشرق (أو بـالعـرض كما نقـول) أرقامـاً زوجية. وهكذا فإنك لن تضل طريقك أبداً .. اللهم إلا أن تكون فى طنطا متوجهاً إلى الإسكندرية فتأخذ طريـق القاهرة الإسكندرية وتصمم على السير فى إتجاه القاهرة إلى أن تكتشف هذا الخطأ بعد بضعة كيلو مترات .

(١٠)

وفى كل ما حققته أمريكـا وما تحققه لا تزال أمريكا حكـومة وشعباً تؤمن بالكتـاب والمكتبة .. لم يـزعزع هـذا الإيمان الدفين فيهـا أنها هى التى نشرت التليفزيون وبرامج التليفزيون .. لا تزال المكتبة عند هؤلاء القوم شيئاً مقدساً. والمكتبة هى إحدى المعـالم السياحية البارزة فى كل مـدينة وكل حى من أحياء

أمريكا، مبناها فخم ضخم تحوطه الحدائق أو مساحات الانتظار، ومواعيدها مناسبة لكل الفئات، والتسهيلات التى فيها لا تخطر ببال.

ومع هذا كله فقد اتسعت المكتبات الأمريكية العامة لمجاراة روح العصر، فأصبحت تعتمد على الكمبيوتر فى الفهرسة والتزويد والاستعارة، وأصبحت تضم قاعات خاصة بالكمبيوتر والبرامج المسجلة على الشرائط المغنطة الصلبة Hard desk ولكن كل هذا من منظور مساعد للكتاب وليس بديلاً عنه. ولا تزال ترى أمارات الخير وبشائر الأمل فى مستقبل هذا الشعب حين ترى الشباب والشابات وفى أيديهم الأعمال الأدبية يقرأونها فى قاعات الانتظار، أووهم قادمون لزيارة المرضى فى المستشفيات .

أما المكتبة الطبية الأمريكية فشىء مبهر وأنا كما ترى أتحدث عنها كشىء واحد ولا أقول المكتبات . وذلك أننى أريد أن أدلك على ما فعلوه بهذه المكتبات حين جعلوها جميعاً تتصل بقاعدة معلومات قوية تهيىء للطبيب (أوالممرضة) أن يتلقى أى مقال يريد أن يقرأه فى خلال يومين على أقصى تقدير ، وذلك بفضل برنامج للبحث عن المعلومات يأخذ فى اعتباره المسافة بين موقع الطبيب السائل عن الشىء، وموقع المكتبات التى فيها هذا الشىء، وينتقى أوتوماتيكياً لهذا الطبيب أقرب هذه المكتبات إليه حتى لا تتكلف المكتبة الطالبة كثيراً من نفقات البريد . أحب أن أضرب مثلاً بالطلبات التى كانت أمامى فى مكتبة مستشفى كليفيلاند. فكثير من هذه الطلبات كان موجوداً فى مكتبة جامعة CWRU فى كليفيلاند نفسها. تسألنى ولماذا لا يخطفون رجلهم إلى مكتبة جامعة كيس ويسترن، ويبحثون هناك عما يريدون قبل أن يسألوا عنه الكمبيوتر. فأجيبك فى هدوء وماذا يفعل الكمبيوتر إذا خطفوا أرجلهم ، تماماً (مع عكس المنطق) كما يتمنى مصرى أمريكى أن ندخل الكمبيوتر فى مصالح الحكومة فنجيبه ياسيدى القارىء بقولك وماذا نفعل بجحافل الموظفين ؟

وقـد كنت فى غـايـة السعــادة حين أتــاح لى الحظ أن أطلع فى ركن الكتب الموجود فى أحـد المحلات العـامة على مجموعـة كبيرة من الكتب التى خفضت أسعـارهـا إلى أقل من الـدولار، وأسعـدنى أكثر أن أرى بين هـذه المجمـوعـة مجموعات الكتب التى تمثل الحلقات أو المسلسلات التليفزيونية الشـهيرة .

وقد وجدت أن حلقات أيام حياتنا Days of our lives موجودة فى أحد عشر كتاباً على الأقل .. ووجدت مـن مسلسلة " عالم آخر" Another world إثنا عشر كتاباً ومن مسلسل دالاس الشـهير أحد عشر كتاباً . ومن مسلسل (بينما يتقلب العالم) As the world turns كذلك والطريف أن الذى يقوم بنشر هذه المجموعات ناشر كندى أو مقـره فى كندا هو Pioneer communication network وتطبع هذه الكميات الضـخمة فى كندا وتحمل علامة تجارية اسـمها Soaps & Serials وتوزع كما ترى فى كافـة أنحاء الولايات المتحدة ، وقـد ينزل بها التخفيض إلى حوالى ٦٧ سنتاً أى أن الثلاثة بـدولارين . وتسألنى عن سر سعادتى ، لعلك توافقنى على أن الأدب التليفزيونى لا بد أن يكون مكتوباً وإلا تحول إلى مجرد أداة لملء أو لسد الفراغ بين ألعـاب تليفزيونية مبهرة .. أى بعبارة أخـرى لا بد أن ترقى الفكرة الفنيـة والأدبية فى مـادة أى عمل تليفزيونى إلى درجـة أن تكون قـابلة للصيـاغة فى كتـاب . وربما أعـود لأستفيض معك فى نقاش هـذا الموضـوع فى موضع آخر .

(١١)

لا يزال الطعام الأمريكى رخيصـاً وفى متناول الناس جميعاً . ربما لا يزال عندهم ذلك الخير الذى كنا نفخر به فى مصر من دون أن نحمد الله عليه ، حين يكون فى وسعـك مهما كان دخلك أن تجد طعامـاً يكفيك الجوع. وقد كـان من حظى أن أتنـاول الطعام فى عـدد من المطـاعم الـراقية التى تختلف جنسيـات طعامها من المكسيكى إلى اليونانى إلى الإيطالى إلى الفرنسى إلى الصـينى ، وذات

مرة قـال أحد أصدقـائنا وكان يابـانياً ألا تودون أن تأكلـوا طعاماً أمـريكياً . ووجدتنـى أعلق أنه لا يـوجد شيئاً أسمـه الطعام الأمـريكى اللهم إلا إذا كنت تقصد تلك الوجبات السريعة من أمثال الهوت دوجز ، والبيزاهت ، والماكدونالد وحتى هذه فإنها تطويـر لأطعمة أخرى فالبيزا هت هى الطبعـة الأمريكية من البيـزا الإيطاليـة ، وهكـذا .. أنـا لا أعرف إن كنـت مصيباً فيما أقـول أم لا .. ولكننى وجـــدت المستمعين من زمـلائى الـذيـن كـانـوا معنـــا فى السيـارة يوافقــوننى... والله أعلم . ولكنى مع هذا أريد أن أحـدثك على سبيل المثال عن هذا المطعم الذى كثيراً ما يزود مؤتمرات قسم البـاطنة العامة بالطعام ، اسمه السيد البطل MR. HERO وقد جعل شعاره المطبوع على الأكياس الخاصة به أنه منقذ العـالم من الأطعمة السريعـة التقليديـة !! تسـألنى عن هذا الإنقـاذ الذى صنـع فـأقول لك إنه يقدم ستة أنواع من السندويتشات يبعث حوالى سبعة من كل نوع فى كيس وعليـه اسـم النوع بـالقلم الفلومـاسـتر ، كيس لسنــدويتسات الديوك الرومى [فى البلاد التى تمت للحضارة الرومية يسمونه بالديك التركى وفى بلاد كمصر والبـلاد العربيـة ارتبطت بتركيا يسمـونه بالـرومى] وكيس لسنـدويتشـات اللحم البقـرى المحمـر ، وثالث لسنـدويتشـات لحم التونـة ، وخامس لسنـدويتشات الجمبرى، وسـادس من نوع آخر مـن لحوم الخنزير وكل سنـدويتش ملفـوف فى أوراق السيـد البطل منقـذ العـالم من الأطعمـة السريعة المعتادة . مع أن مسألة إنقاذ العـالم هذه فيها نظر!! . وأحب أن أذكر لك كـذلك أن أمـريكـا انتبهت منـذ مـا قبل منتصف الثمانينـات إلى خطـورة استعمال الأكياس النـايلون على البيئـة والغلاف الجوى وعـادت أمريكـا إلى استخدام الأكياس الورقية التى نعرفهـا جميعاً فى مصر ونظنها من بقايا عهد عصر ما قبل الانفتاح .

وفى أمـريكاً يحرصــون الآن تمامـاً على الإفادة مـن الصحف القديمـة فى صناعة الاكياس الورقية. وعلى الإفادة من علب الصفيح الفارغة التى تستخدم للمشروبـات والمأكـولات كـذلك .. وعنـدهم الآن نظـام قـومى إسمـه إعـادة الـــدورة Recycling يقتضيهم أن يجمعوا هذه المواد على بعضـها وأن يضعوها فى أكياس مخصوصـة بحيث تذهب بعيداً عن القمامة إلى المصـانع التى تتولى إعادة تصنيعها .. وتجد الأكياس الورقيـة مكتوباً عليها أنها صنعت من مواد «إعـادة الدورة» . وهكـذا .. وأذكر لـلإنصاف أن هـذا النظام متبع فى المملكـة العربية السعودية منذ مرحلة مبكرة وبالنسبة لى فقد رأيته فى السعودية بدون الاسم طبعاً قبل أن أراه فى أمريكا ـ لا أذكر بالتحديد فى أى المرات ٧٨ أم ٨٨ أم ٨٩ ؟ ولكنه أصبح اليـوم بمثابـة حمى جميلة تجتـاح أمريكـا كلها وفى معظم مصـالحها وبيوتها وشوارعها أماكن مخصصة لإعادة الدورة Recycling .

(١٢)

و اهتمام مراكز البحوث الأمريكية والجامعـات هنا بموضوع ما قد يصل إلى حد الجنون ! هذه هى حقبة أزمة صـدام مثلاً فإذا بالدراسات التى تتناول الموضوع من كل زاوية لا تنتهى . وأنت تعرف أن نظامهم التعليمى فى الجامعة يقوم (فى أغلب الأحوال) على ما يسمى بنظام الساعات المعتمدة فى الجامعات ، وهـو نظام يتيح للطـالب أن يختار مقـرراتـه فى حدود وتكـون النتيجة أنـه ينجذب إلى موضـوع الساعة .. أحياناً لأنه سيجد مواده متوافرة ، وأحياناً لأنه يرضـى فضولـه، وأحياناً لأنه يمهد نفســه لشىء ما فى الوظائف القـادمة بعد انتهاء هذه الأزمة .

وفى كثير من الأحيـان يُعبر الطـلاب من خـلال اختيـارهـم للمـواد التى يدرسونها عن رغباتهم الشخصية وفى هذا المجال يذكر أستاذ مسلم فى جامعة

أمريكية أنه وزع استبياناً على طـلابه فى نهاية الفصل الدراسى وكان من بين أسئلته : لماذا اخترت هذه المادة ؟ وجاءته إجابة طالبة يهودية تقول :-to fight Is lam لأحارب الإسلام، ربما لم تكن تعرف أن هـذا الأستاذ مسلم، وربما كانت تعرف ولا تبالى . وقد تداولت الصحافة العربية فى منتصف الثمانينات على ما أظن ما اسمته بفضيحة التحقيق فى مؤتمر إسلامى فى جـامعة هارفارد مولته المخابرات الأمريكية بخمسين ألف دولار ، و هذا المبلغ كما تعرف مما تقرأ عن المؤتمرات المصرية (لا الأمريكية) ليس شيئاً ذا بال خاصة إذا علمنا أنه شارك فى هـذا المؤتمر مـا لا يقل عن ثـلاثين عـالماً أتى معظمهم من الشرق الأوسط خصيصاً له .

(١٣)

هل نجت أمـريكا من حمى الطـائفية والتفريـق العنصرى أم أنها لا تزال تعانى ؟ سؤال كان لا بد لى من أن أتأمل الواقع أمامى لأجد عليه إجابة . ولابد أن أطلب إليك أن تحاول معى معرفة نسبة السـود بين هذا الشعب ، فأحياناً ما يهيىء للمرء منا أن ٩٠٪ من الأمريكان سود على عكس ما قد يعتقده الكثيرون منا أيضاً أن ٩٠٪ من الأمريكان بيض ــ فى الأتوبيس مثلاً ١٠٠٪ سـود ـ بين طوائف معينة ١٠٠٪ سـود ـ فى الأسواق العامـة ، فى مداخل الفنادق ... إلخ ، وعلى الرغم من أن هذا البلد هو بلد الإحصاءات فإنك لن تستطيع أبداً أن تقتنع بكثير منها .. ومع ذلك فهم يقولون أن ٦٠٪ من سكان ولاية أوهايو مثلاً من السود والله أعلم .

تأمل بعد هـذا إعلانـات التليفزيون فمن الغـريب أن تجد الإعلانـات وقد قصرت النجـومية على السـود .. هذا إعـلان شهير عن دجـاج كنتاكى فى هـذا

الإعـلان نجـد أبطـال ريـاضـات كمال الأجســام وكلهم من الســود ، وهـم يستمتعون بهذه الوجبـة.وينفثون شرر النار من أفواههم بعـد تناولها ثم إذا بهذا الشرر قادر على أن يضع كـرة السلة فى السلـة بلا مجهـود! مع أن دجاج كنتاكى هذا كما تعرف ياسيـدى ليس إلا كثيراً جداً من المتبلات فوق قليل من الدجاج يكفى بالكاد لإطعام شخص أقل من العادى فيما يتعلق بكمال جسمه أريد أن أسألك هل لا يصلح هـذا الإعلان بنجوم بيض ؟ اعتقـد والله أعلم أن مثل هذه القوة العضلية البارزة لا تـوجد فى البيض أبداً بنفس القدر الذى هى فيه فى هؤلاء الســود الذين يبعثون الشرر القادر بعـد ذلك على أن يخطف كرة السلة ليضعها فى سلتها .

(١٤)

وأخيراً .. أحب أن أقول لك إنه لا يزال عند الناس فى أمريكا [عموماً] شعور الصداقة ، خذ مثلاً هذه المسافـة التى أقطعها فى مرتفعات كليفيلاند فى طريقى إلى الأتوبيس أو إلى السوبـر ماركت أو لمجرد المشـى ، ها هــم الناس يبدأوننى بالتحية حتى أولئك الجلوس فى شرفات منازلهم عن بعد .. ولكنهم على النقيض من ذلك حين يكونون فى مجتمع مزدحم . تجدهم متحفظين إلى أبعد الحدود .. وفى المستشفى تجد الزملاء والزميـلات حريصـين على أن يطمئنوا على أحوالك كلها : سكنك ، صيـامك ، سفرك ، هوايـاتك ، راحتك .. ولكن ليس من اللحظة الأولى .. وحتى فى الأتـوبيس تجد السائق يفتح معـك حديثـاً عن عملك ، و عن مواعيدك ولكن ليـس من المرة الثانية أو الثالثة التى يـراك فيها ولكن ربما من الرابعة . هل أريد أن أقول إن الأمـريكيين ليسوا إنجليزاً ؟ نعم بالطبع .. ولكن هل هـم شرقيون ؟ نعم وربما أكثر من الشرقيين الذين نعرفهم الآن .

الفصل الثانى
أمريكا تستعيد أم تستعير روح العصر

(١)

كان أول سؤال وجهته إلى صديقىّ اللذين تفضلا بمرافقتى من الفندق إلى المنزل عن هـذه الأعلام الأمريكيـة الكثيرة المرفرفة على كثير من المنـازل وكان الجواب : بمنـاسبة الحرب ، قلت ولكن الحرب انتهت منـذ أسبوعين بـالنصر، قـالا: نعم ولهذا يحتفظ بها الأمـريكيون !! . وطـوال إقـامتى وجـدت الشعب الأمـريكى وقد أصـابتـه روح جديـدة روح تستعيـد الانتصار على العـراق! وتستعيد بهذا الحدث (الإعـلامى) روح الانتصـار ! . أما أن أمـريكا انتصرت فـأمر لا شك فيه .. وأما أن المعركة كـانت صعبة فـأمر هو الشك بعينه !! ولكن الإعلام الأمريكى لا بـد أن يصورها كذلك ليجعل لـلانتصار معنى ! . أريد أن أقول إنـه لم يكن هناك مبرر على الإطلاق لكى تخرج أمـريكا من هذه المعـركة بغير النصر! ولكن الأمريكيون لا يـريدون إبراز هذه الحقيقـة لأنهم بإبرازها يضيعون روحاً استعـادوها . ثم أظهروا للناس وأنفسهـم أنهم استعادوها !! لأنهم كانوا منذ حرب فيتنام فى حاجة إلى استعادتها !! .

روح النصر التى تغمـر الأمريكيين اليـوم روح مستعـارة .. وهم أول من يعرف ذلك .. فأمريكا وجدت نفسها أمام فرصة سانحة ربما لن يجود التاريخ

بمثلها ومن المؤكد أنه لم يجُد فيما مضى بمثلها على الإطلاق .. وقد عاملت أمريكا الفرصة السانحة التى أتتها كما يتعامل الرجل كبير السن مع كنز ذهبى لامع يجده فى الطريق الخالى إلا منه فإذا هو مصمم على ألا يتناول الكنز إلا بعد الاطمئنان تماماً إلى انتفاء شبهة المفرقعات عنه ، لأنه لا يزال يذكر قصة الألغام التى كان العدو يلقيها على الناس على هيئة أقلام وساعات ، فإذا ما انتهى من كل الشكوك استدعى للكنز الذهبى خبراء المفرقعات ! وأكثر من هؤلاء الخبراء، من دون أن يدفع لهم أجراً من جيبه ، وإنما هو قد استطاع أن يقنع أصحاب البيوت المهجورة القريبة من موقع الكنز بأنه لا بد لهم أن يشاركوه عملية إنقاذه لكنز لأنه يشك فى أن خادمه نسى فى داخل كنزه (الذى وقع منه !! ... وهكذا أصبح تعبيره عن الكنز مصمماً على وصف تملكه!!) مواداً مفرقعة قد تودى بحياتهم إذا ما وُجدوا بالصدفة بالقرب منه ساعة انفجاره .. وأصحاب البيوت المهجورة الواقعة فى الشارع الذى فيه الكنز يدفعون لخبراء يتولون تطهير الكنز من ألغام وهمية أو شبه وهمية .. والرجل المسن يأخذ نصيباً من أجور الخبراء نظير استجلابهم من شركة هو المساهم الأكبر فيها .. وبعضاً آخر نظير أجهزته التى يبيعها لهم من شركة أخرى هو صاحبها المنفرد ، وبعضاً ثالثاً نظير تعليمهم وتدريبهم فى معهد أمنى يسيطر عليه بماله وخبرته .. ومع كل ذلك يحتفظ بالكنز، ثم يحكى الرجل العجوز لأولاده وأحفاده المقيمين فى البعد كيف أجهد نفسه فى التقاط هذا النصر الثمين.. بينما كان هناك كنز آخر قريب لو وفقه الله إليه لكسب أضعاف ماكسب من الكنز الأول .. أقصد بالطبع حل مشكلة الفلسطينين.

على أية حال فالانتصار الأمريكى فى حرب الخليج أياً كان حجمه هو أصدق تعبير عن الشخصية الأمريكية اليوم فى مجال الأعمال . وقد خاضت أمريكا الحرب وأدارتها من باب علم إدارة الأعمال وليس من باب الحماس .

وكل ما حققته أمريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين لما وصلت إليه أمريكا فى مجال إدارة الأعمال .. وكل ما افتقدته أمـريكا فى هذه الحرب هو انعكاس أمين أيضاً لكل ما تفتقده سياسات إدارة الأعمال فى أمريكا .

وطوال ساعات وأيام ممتـدة كنت حريصاً على أن أصل إلى بعض الأضواء الكـاشفة التى حكمت تصرفـات أمريكـا فى حرب الخليج.. ربما استغـرقت فى تفكير عميق ومتصل فى بعض الأحيـان ، وربما انتبهت على لمحـات سريعـة ومتقطعـة فى أحيـان أخـرى ، ربما أسرفت فى التأمل حينـاً ، وربما أسرعت بالاستنتاج حينـاً آخر ، ربما حاولت تعمق بعض الظواهـر فى بعض الأوقات. وربما اضطررت إلى البعد عن تفسير الظاهر بغير ماهو ظاهر، ولكنى مع هذا استطيع أن أزعم بأن هنـاك عـدة عـوامل حاكمـة كـانت من أهم خصـائص السلـوك الأمريكى فى حـرب الخليج وهـو السلوك الـذى قاد إلى النصر الـذى نعرفه . سواء استعادت أمريكا روح هذا العصر . أو استعادت أمريكا به روح العصر .

- ◻◻ تركيز العمل فى خط واحد .
- ◻◻ النقطة المثالية هى الهدف وليست النقطة القصوى .
- ◻◻ التمويل قبل التخطيط (وبالطبع قبل التنفيذ) .
- ◻◻ التجريب فى نطاقات محدودة .
- ◻◻ التوثيق القابل للاستدعاء الفورى .
- ◻◻ وسائل الاتصالات المتعددة غير المتقاطعة .
- ◻◻ تقبل الأمر الواقع كواقع .
- ◻◻ تقدير الأمثال .
- ◻◻ استثمار اللغة .
- ◻◻ نمذجة السلوك الإنسانى .
- ◻◻ نمو التفكير الرياضى البيولوجى .

هل تسمح ياسيدى القارىء أن أتحدث عن هذه العوامل بشىء من التفصيل :

(١) **التركيز فى خط واحد** : هذا هو أبرز وصف (أو أصدق) للاتجاه الذى يسيطر اليوم على البيروقراطية الأمريكية فى دواوين العمل وفى البيوت أيضاً .. لا تجد موظفاً يلتفت إليك ولو بالتحية إذا كان مشغولاً مع عميل سبقك إليه .. وأنت تطلب التليفون فيأتيك الصوت من على الجانب الآخر أن انتظر دقيقة قبل أن تتكلم ويحولك إلى موسيقى الانتظار ربما لعشرة دقائق حتى ينتهى الطرف الأخر من حديث تليفونى على خط آخر !! هل هذا هو الهدوء أم هو البرود ؟ قد نختلف فى التعريف والتوصيف .. ولكن العقلية الأمريكية اليوم لا تعمل فى أكثر من اتجاه فى ذات الوقت وقد كانت معركة الخليج نموذجاً حياً للاقتصار على اتجاه واحد فى كل حين .

- الحرب الأهلية تأخذ شهوراً من وقت العالم .
- القرارات الدولية والمشاركات تمضى خطوات لا يعوزها التعقل ولاالصبر الشديدين .
- الهجوم الجوى يستغرق هذه الأسابيع الطوال وليس من هجوم سواه.
- ترتيب الأوضاع يستغرق كل هذا الوقت وبدون نظر إلى شىء آخر.
- الانسحاب يتم كما لو كان مسألة بيروقراطية تجرى على مهل شديد .

(٢) **النقطة المثالية هى الهدف** : كل من درس التفاعلات البيولوجية والكيميائية يفهم هذا المعنى جيداً ... وسأحاول أن أختزله فى مثل بسيط وهو أن أنسب درجة حرارة لجسمنا هى حوالى ٣٧ درجة مئوية مثلاً .. إذن فليست زيادة درجة الحرارة أو قلتها هدف وإنما الهدف هو الوصول إلى نقطة معينة على المنحنى ، عند هذه النقطة يتم التفاعل المطلوب بأحسن ما يكون من نتائج.

وأتركك ياسيدى القارىء تتأمل موقف الإدارة الأمريكية كلها من حرب الخليج فى ضوء هذه الحقيقة .

□□ الخلاف الظاهرى الذى لم نسمع عنه إلا بعد انتهاء الحرب بين الرئيس بوش والقائد شوارتسكوف حول تدمير قوة صدام حسين .. وما ظهر للناس جميعاً بعد ذلك من حرص أمريكا الشديد على صدام حسين وبقائه بدرجة محسوبة من القوة والنفوذ!! .

□□ التعبئة الدبلوماسية فى الأمم المتحدة حتى صدور القرار الأخير بتحديد ١٥ يناير، مع أنه كان فى وسع الحلفاء التبكير بهذا الموعد (على مستوى القرارات) ولكنه كان الموعد الأمثل على مستوى التعبئة الحربية .

□□ الضوء الأخضر الذى أعطى لصدام حسين فى الوقت المناسب تماماً حين كانت سيارته قد تخطت الإشارة السابقة وأصبحت فيما بين إشارتين.. فأما الإشارة السابقة فقد غفل عنها عسكرى المرور العربى لأنه كان يفقد أداة من الأدوات وهى الديمقراطية .. وكانت حرية الصحافة مغيبة غالباً (وبفعل دينارات عراقية فى بعض الأحيان) . والإشارة التالية كان لها جهاز مرتبط لسبب تكنولوجى بحت بالولايات المتحدة فى غرفة تحكم مركزية .. والناس يرون عمود الإشارة ولا يرون الإشارة .. وقد تفضلت السيدة السفيرة الأمريكية فى العراق فأعطت القائد الملهم انطباعها أو معلوماتها عن طبيعة الإشارة وأنها خضراء. وكانت سيارة صدام مهيئة لعبور الطريق بأكثر مما هى مهيئة للاستجابة للفرامل التى كان صدام قد قلل وعطل وأهمل استخدامها منذ زمن بعيد فى ظل ظروف الإسراع المستمر.

□□ الجرعات الإعلامية المحسوبة فى تقدير أوهام صدام وأوهام الناس عن صدام مع الاحتفاظ بروح التحفظ عند القادة الأمريكيين .

(٣) التمـويل قبل التخطيط (وبـالطبع قبل التنفيـذ) : قد تستطيع حكومات أو إدارات كثيرة أن تفخر بأنها وفرت التمويل أو نسبة منه قبل البدء فى تنفيـذ مشروع ما .. وفى الغـالب يكون التمـويل جزءاً من التخطيط أو هـو المرحلة الأخيرة منهـا ، إلا أمريكـا، فقد استطاعت هـذه البلاد بقـدرة قادر أن تـروض نفسها على أن تجعل التمـويل أولى خطوات التخطيط إلى الحد الـذى يعرفـه كل المتعاملين مع مشروعـات التعاون المشـترك مع الأمـريكين من أنهم يخصصـون منحـة أولية لإجـراء دراسـة الجدوى قبل البـدء حتى فى طـرح التصورات المتعلقة بأى مشروع. وقد نجحت أمـريكا فى حرب الخليج فى توفير التمويل وبأكثر مما هو مطلوب لكل خطوة من قبل أن تبدأ هذه الخطوة .

(٤) التجريب فى نطاقات محدودة : يحرص الأمريكيون على استخدام ما يسمـونه «موديل» أو «نموذج» للمشروع يبـدأون به ممارستهم لـلأفكار النظرية على الطبيعة . فيكتشفون من خـلاله ثغرات التخطيط، وعيوب النظام القـائم بالهدف . وفى الحرب ربما يصعب تصـور وجـود فرص للتجـريب فى نطاقات محدودة.. ومع هذا فقد ساعـدت قلة حنكة الرئيس العراقى وحماقته الأمـركيين على إيجاد فرص ذهبيـة للتجـريب فى نطـاقات محدودة .. فكـانت معركة الخافجـى مثلاً نموذجاً مبكراً جـداً لدراسة خطط المعـارك البرية عند الجانب العراقى مما أدى إلى زيادة الثقة فى تطويل أمد الهجوم الجوى .

(٥) المعلومـات والتوثيق القابـل للاستدعـاء الفورى : أمريكا اليوم أعظم الحضـارات قـدرة على الأرشفـة ، ووضع كل شىء فى كل الملفـات التى تتعلق بهذا الشىء . ولكن أمريكا التى تبذل من نفسـها كل هذا الجهد فى توثيق كل خطوة وزمنهـا ومكانها وحـالها وقدرها .. إلخ لا تفعل ذلـك من باب حب الأرشفة (أو أداء الواجب كما نفعل) ولكنها تهيىء من كل هذا الأرشيف ذاكرة قوية قادرة سريعة منظمة تستطيع أن تستـدعيها فى ثانية واحدة .. والتسابق

اليوم بين بنوك المعلومات ونظم المعلومات يدور حول المدى المتناهى فى الصغر من الثانية لاستدعاء المعلومات . وفى كل اللحظات التى كان على القائد الأمريكى فيها أن يفاضل بين خيارين كانت بنوك المعلومات تفاضل له بين تلال من المعلومات والبيانات إلى الحد الذى كانت نسبة الخطأ تتلاشى ونسبة الزيغ تنعدم .

ومع هذا فإنى متأكد أنك سوف تطالع فى الشهور والسنوات القادمة انتقادات عنيفة من النواب والشيوخ الأمريكيين للمخابرات الأمريكية ووزارة الدفاع لأنها لم توفر للجيش الذى تولى عاصفة الصحراء معلومات عن تكلفة سندويتشات الفول المصرى التى كان من الممكن نقلها بالطائرة إلى القوات الأمريكية فى عطلة نهاية الأسبوع كبديل ممتاز للكشرى الأمريكى !! بدلاً من انتظار هذا الكشرى من أمريكا فيأتى بعد ٢٤ ساعة من تصنيعه .

(٦) وسائل الاتصالات غير المتقاطعة : نجحت أمريكا فى أن تطور نظم اتصالاتها بحيث يصبح أمام كل زميلين (فى كثير من المؤسسات التى أتيح أن أتأمل طريقة عملها) الفرصة للاتصال ببعضهم من خلال ثلاث وسائل على الأقل . ومع هذا فقد احتفظت هذه النظم بالقدرة على الخصوصية فى الاتصالات بحيث يمكن بشىء قليل من التحكم الفعال إبعاد بعض المعلومات عن متناول الكثيرين وإبقاء هذه المعلومات فى إطار السرية المطلوبة ، وسأذكر على سبيل المثال كيف تطورت نظم الاتصالات داخل القسم الواحد فى المستشفى الواحد إلى الحد الذى لا يستطيع أعضاء القسم ملاحقته ـ ولكنهم ساعة لجوئهم إلى هذه الوسائل يجدون من يدلهم عليها فى التو واللحظة ـ وقد صادفت فى كليفيلاند كلينيك كثيراً من الطرائف حين أتيح لى مثلاً أن أدل اثنين من هيئة الأطباء العاملين هناك على السبيل إلى معرفة ما إذا كان المريض قد أجرى فحص الدوبلر المقرر له الآن أم لا دون الذهاب إلى حجرة الفحص وذلك

من خلال نهاية من نهايات الكمبيوتر اكتشفتها معلقة فى مدخل المعامل كلها .

وهذه المعلومات لا سبيل إلى احتكارها لأن احتكارها يضيع وقت المؤسسة فى سؤال موظف مخصص لاحتكارها وتنظيمها بينما إشاعتها هى الأوفر . وعلى الطرف الآخر كانت هناك معلومات أخرى تتعلق بأمور بيروقراطية بحتة هى فى الواقع أقل أهمية بالنسبة للأطباء ، ولكن النظام لا يسمح باشاعتها وتداولها على هذا النحو ، ومثل هذه المعلومات يصعب على الجميع الوصول إليها إلا أصحاب الخصوصية !! والحديث عن مستويات المعلومات والتحكم فى تدفقها وسريانها يطول .. ولكنى أحب أن يتأمل القارىء معى كل سيناريو حرب الخليج ليتأمل هذه المستويات المتعددة تعدد المعلومات نفسها .

(٧) تقبل الأمر الواقع كواقع وكواقع فقط : أصبحت نفسيات الأمريكيين قادرة على تقبل الأمر الواقع ولكن فى حدود وجوده فحسب .. فالأمريكيون لا يخفون رءوسهم فى الرمال ولكنهم أيضاً لا يسلمون بالحقوق المدعاة من خلال الأمر الواقع .. وعند الأمريكيين قدرة على التجاوز عن الخطأ إذا ما كان فى الانشغال بالخطأ نواة لضياع وقتهم .. وتستطيع مثلاً أن تأخذ مكان غيرك فى الطريق بسيارتك فإذا هو هادىء صامت إذا استطعت أن تفعل ذلك فى غفلة منه ، ولكنه ثائر إذا لمحك وأنت تحاول ذلك فإن الأمر لا يزال بيده أن يمنعك . أريد أن أزيد هذه النقطة وضوحاً فأقول لك إن الأمريكيين يبحثون فى ثنايا الواقع عن بعض الحق ـ ولكنهم يقصرون هذا البحث على الأحوال التى يجدون أنفسهم فيها مضطرين لقبول الأمر الواقع ـ أو فى حاجة إلى وجوده أو قبوله .. فإذا ما انتفت الحاجة للاضطرار ، فالأمر الواقع عندهم ليس إلا شيئاً قابلاً للزوال . وأحياناً أخرى جديراً بالزوال . وأحياناً قليلة واجب الزوال بأيديهم هم !! .

(٨) **تطوير المعتقدات :** للحضـارة الأمريكية اليوم قدرة بارزة على التحرر من الحكم والأمثال والأقوال المأثورة التى تحكم الحيـاة .. قارن هذا بعقلياتنا حين نحاول أن نتأمل المثل العربى القديم على أنه يكون فى بعض الأحيان أقرب إلى منظور «خدعـوك فقالوا» وكيف نواجه الفشل مهما كـانت خبراتنا وأدلتنا أقرب إلى الواقع و الصواب.

هذه هى مجلـة النيوزويك الشهيرة تخصص صفحة كاملـة لهذه الأقوال التى تلعب بها البورصة كل أسبوع .. تـرتفع بأسهم بوش مرة وتنخفض بها مرة أخرى وهكذا تفعل مع كل الشخصيات ... مستخدمة الأسهم الصاعدة ↑ وأحيانا المتوازية ← → ثم تضع بعض الأمثـال الشـائعـة فى ركن وتضع الأمثال الحديثـة التى أسفرت عنهـا الظروف الجديـدة . قد اختصر لك بعض الأمثال التى عـدلتها النيوزويك فى عددها الصـادر فى منتصف مارس ١٩٩١ حين تتناول شعار المظاهرة الأمريكية الذى كان يقول «لا دم من أجل البترول» ! فتضـع بدلاً منـه مثلاً جديـداً يعبر عن الحقيقة التى انتهت إليهـا الحرب من الحصول على البترول بلا دم !! .

كان المثل No blood for oil فأصبح المثل Oil for no blood . هل رأيت تعبيراً أبلغ وأكثر قـدرة على السخرية والتصويـر معاً من هذا المثل المحـور!! وهكذا تمضـى النيوزويك فى إمتـاعك بلاغياً وفى ذات الوقت تضـاعف من حزنك على العراق وزعيم العراق!! وهكذا تصبح الحضارة الأمـريكية (والأداء الأمريكى فى الحرب) قادراً على أن ينتفع دائما باتجاه الريح حسبما تأتى الريح لاحسبما كان يعتقد فى اتجاهها قبل أن تقلع سفينة الحياة أو سفينة الحرب .

تستطيع أن تبـالغ فى التعبير عن هـذا الخلق عنـد الأمريكيين فتقـول إنهم لايعبدون إلا الـواقع، ولا يعتقدون إلا فى الظـروف ، ولكنك لا تستطيع مع هذا

أن تنكر على هؤلاء ثروتهم الضخمة من الأقوال والأمثال الكفيلة بهدايتهم فى بحار الظلمات التى تحيط بالبشرية من كل جانب.

(٩) استثمار اللغة : كنت أتحدث فى عشاء رومانسى جميل بين أساتذة رفيعي الثقافة عن فضل الأمريكيين على اللغة الإنجليزية . فقلت إن الأمريكين أعطوا هذه اللغة بُعد « البلاغة » بعدما أعطاها الإنجليز بُعد « الدقة » ... وأنه لكى نفهم هذا الفضل الأمريكى على اللغة الإنجليزية يكفينا أن ننظر الآن مثلاً إلى قائمة الطعام التى سيحضرها لنا القائم بخدمتنا فى المطعم ونتأمل الصياغات المختلفة للعبارات المفترض أنها تؤدى وظيفة محدودة جداً فى وصف أطباق هى فى الأغلب تقليدية جداً .. فقد كان المطعم أحد المطاعم المكسيكية الكلاسيكية . لم يكن الأساتذة الأفاضل فى حاجة لمثل هذا ليوافقونى على رأيى، بل كان عندهم من الفهم العميق ما دعاهم إلى إثبات موافقتهم التامة على مزاعمى هذه.

ولكنى وجدت نفسى أستفيض فى الحديث (بحرفية الأزهريين القدامى) عن بعض مظاهر البلاغة الطاغية فى استخدام الأمرييكين للغة .. فلا تكاد تجد إعلاناً واحداً لا يصلح لأن تضعه فى امتحان البلاغة لطلاب المرحلة الثانوية للبحث عما فيه من مجاز لفظى أو لغوى أو استعارة أو كناية أو تشبيه بليغ على أقل تقدير .. دعك من الجناس والطباق والسجع والمحسنات البديعية التى لا تنتهى .. وقبل كل هذا هناك الأفكار التى لا جدال فى استحداثها حتى وإن جادلت بسهولة فى مغزاها وصحتها .

أحب أن آخذك معى بعض الشىء لأستكمل ما قلت ساعتها من أن الألمان قوم عظماء لا شك وقد أعطوا (شأنهم فى ذلك شأن العرب) لغتهم قدرة عظيمة جداً على "التعبيرية" حتى وصلت إلى ما وصلت إليه اليوم من دقة تعبيرية

بالغـة .. ولكن لا الألمان ولا العرب استطـاعوا أن يستغلوا اللغـة كما استغلها الأمريكيون . فأنت ترى النص القانـونى أو التاريخى فى اللغة الألمانية أو اللغة العربية وقـد صيغ صياغة ممتازة تسمح لك بعـد تأمله أن تتبين الصواب من الخطأ، والمشروع من المحظـور، والواقـع من الخيال ، والمرغـوب من المتروك . نعم تستطيع أن تصل إلى كل هذا من خـلال الصياغة فى بناء الجملـة العربية أوالألمانية فى نسيج النص اللغوى المتاح متى تأملته، ولكنك لا تستطيع أبداً أن تزعم أن هذا النـص الألمانى أو العربى قادر على أن يصدمك بما يـريد بمجرد قراءته .. قارن هذا بما تجده من نفسك من هذا النص الأمريكى المفكك (غالباً) فى صياغتـه حين تجد نفسك قد فهمت منه كل مـا يريد هؤلاء القـوم أن ينهوه بكل ما حملوا اللفظ من إيحاءات ربما لا يستطيع أن يحملها، ولكن الأمريكيين بطريقة ما جعلوه قادراً على هذه الوظيفة.

قـد يضـع الأمريكيـون اللفظ فعلاً فى غير مـوضعه . ولكنهم بهذا الـوضـع يوفـرون على أنفسهم ثلاثـة سطور كـاملة من التعبير الجميل الـدقيق! . وقد يضـع الأمـريكيون بعض كلمات وراء بعضـهـا كأنها معطـوفة على بعضـهـا ، ولكنهم لا يقصـدون إلا التعبير عن صراعـات بين الأفكـار التى تمثلهـا هـذه الكلمات من دون أن يـزعموا لأنفسـهم ـ حتـى لحظة التعبير ـ قـدرة على فهم علاقة هـذه الصراعات. ولهذا فهم يكتفون بالفصـل بين هذه الكلمات وبين ما تمثله من معان بتلك الشرطة البسيطة .

أريد أن أقول إن الأمريكيين أخذوا اللغة على أنها وسيلة من وسـائل النجاح فى الحياة والتعـامل اليومى واستغلوها أوسـع استغـلال (ولك أن تقول أبشـع استغـلال) ربما تبسطـوا معهـا إلى الحدود التى يمكنك معهـا أن تقـول إنهم ابتذلوها تماماً ، وربما تكون رومـانسياً مثلى فتقول إنهم أعطوا لغة الإنجليز البلاغة بعد ما أعطاها الإنجليـز الدقة . ولكنك فى كلا الحالين تبقى موافقاً على أن هناك فـرقاً كبيراً بين هذه اللغـة الإنجليزية فى تلك الجزر البريطـانية وبين

هذه اللغة الأمـريكية فى القارة الواسعـة المسرعة القادرة على تحطيم كل شـىء من أجل أى شـىء يتصـادف أن يكـون هو الشـىء المراد ولهذا فـلا تندهش إذا سـألك واحد من الأمريكيين ذات يوم عما إذا كنت تتكلم اللغة الأمـريكية !! .

(١٠) **نمـذجـة السلـوك الإنســانى :** بلغ تقـدم العلـوم الإنسـانيـة والاجتماعية فى جامعـات ومعاهد الولايات المتحدة الأمـريكية الحد الذى مكن من اتمام دراسات متقـدمة حول كثير من الموضــوعات التى تبـدو لنا وكأنها محكومة تمامـاً بالعامل الشـخصـى والعامل الـوقتى، وأنه لا مجال أمام العلم لدراستهاعلى نحـو تفصيلى .. من ذلك أن جامعة هارفـارد بالاشـتراك مع عدد من الجامعات القريبـة منها مثل Tufts و MIT أتمت مشروعاً بحثيـاً أسمته "مشروع مفاوضـات هارفارد" وذلك من خلال دراسة قرارات الصراع نظرية وتطبيقاً ، وكان من أبرز نشاطات هـذا المشروع على سبيل المثال تطوير أفكار عملية الوسـاطة ذات النص الواحد التى استـخدمتها أمريكا فى مفاوضـات كامب ديفيد من أجل السلام فى الشرق الأوسـط (١٩٧٨) حيث كان هناك نص واحد أُجريت عليه تعديلات كانت كفيلة بجعله مقبولاً من الطرفين .

ولعل مما سـاعد هـذه الجامعة التى هى من أبـرز مؤسـسـات الحضـارة الأمريكيـة على النجاح والتقـدم فى مثل هذه الـدراسات ذلـك الصـبر والدأب فى تعمق دراســة الجوانـب المختلفـة من النشــاط الإنســانى السيكولوجــى والعقلـى والاجتماعى إلى الحد الذى جعل التنبؤ بـردود الأفعال الخاصـة جداً ممكنا جداً.

وعلى هذا النحو استطـاعت أمريكا وحضـارة أمريكا أن تتعـامل فى سهولة ويسر مع كل الأطراف فى حرب الخليج بدءاً من الرئيس صدام حسـين ومروراً بكل الرؤساء الآخرين ، مايجور ، و ميتران ، وكافيو ، ومبارك ، وكول ، وفهد والأسد ، والشـاذلى بن جديد وأوزال، و انتهاء بالرئيس الإيرانى رافسـنجانى

الـذى كـان من الصعب على أى منجم الـوصـول إلى تنجيمة محتملـة لموقفـه وموقف إيران فى كثير من لحظات الحرج الظاهرة فى حرب الخليج.

(١١) **التفكير الرياضي ـ البيولوجي :** و مع أن الأمريكيين قوم عمليون جداً فإنهم فى دراسة السلوك الإنسانى قوم نظريون جداً .. ثم هم فى الوصـول إلى قـرار أصـحـاب قـدرة على البعـد عن القرار الـواحـد، والتأكيد على البـدائل المتعددة .

سـأنقل لك فقرتين من كتـاب اطلعت عليه منذ مـدة فى الإنجليزية، وقـرأته كـاملاً خـلال هذا الأسبـوع بعد أن وجـدته لحسن الحظ قـد صدر فى اللغـة العربية. الكتاب اسمه "نحو التآلف والاتفاق أو بناء علاقات إيجابية" مؤلفاه هما روجر فيشر وسكون براون ـ من تـرجمة الدكتور محمد محمود رضوان وقد أشرفـت الجمعية المصريـة لنشر المعرفـة والثقافـة العالميـة بالقـاهرة على ترجمته وإخراجه ، ونشرته الدار الدولية للنشر والتوزيع (١٩٩١) .

الفقـرة التى يطيب لى أن أدلك عليهـا تتحـدث عن اختـلاف الـرؤى بين مستوى المدير الأوسط ومستوى المدير التنفيذى الأعلى.. ليس فى الفقرة شىء جديد عليك.. أنت تعرف كيف يفكر المدير الأوسط وكيف يفكر المدير التنفيذى الأعلى فى ذات الموضـوع .. لكنى أدعوك إلى تأمل قـدرة الحضـارة الأمريكية على وضـع كل هـذا فى جـدول وبنـاء دراسـات نفسية واجتماعيـة عليـه، ومـدى استغلالـها بعد ذلك لهذه الحقائق فى متن السياسة.

المدير الأوسط : الرئيس يغير سياسته كما تغير الحرباء جلدها .

المدير التنفيـذى الأعلى : الذين يعملـون معى يستجيبون لتـوجيهاتى ببطء.

المدير الأوسط : هناك كثير جداً من الأعمال الكتابية فى هذه المؤسسة.

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون يتأخرون فى تقديم تقاريرهم الشهرية.

المدير الأوسط: أنا أعمل معظم الفترات المسائية وعطلات الأسبوع ولكن رئيسى يغادر العمل فى الساعة السادسة مساء.

المدير التنفيذى الأعلى : حينما كنت فى مستواهم كنت أعمل ليلاً ونهاراً لكى أحصل على ترقية .

المدير الأوسط : هذه الشركة تكافىء الخبرة الغريبة ، يحضرون غرباء ليرأسونى .

المدير التنفيذى الأعلى : العاملون الذين ندربهم يهجرون من أجل المنافسة .

المدير الأوسط : ربما أستطيع أن أحصل على دخل أكبر فى مكان آخر.

المدير التنفيذى الأعلى : إننا ندفع أجوراً لعمالنا أعلى بكثير مما كنت أتقاضى وأنا فى سنهم .

المدير الأوسط: عندما أبلغ مستوى أعلى سوف أكون أكثر تحكماً فى حياتى .

المدير التنفيذى الأعلى : ليس لدى مرءوسىّ فكرة عن الضغوط التى تقع علىّ .

المدير الأوسط: إننا لا نسمع عن السياسات الجديدة أبداً إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير التنفيذى الأعلى : إننى لا أسمع من العاملين معى عن مشكلة يواجهونها إلا فى اللحظة الأخيرة .

المدير الأوسط : إن رئيسى لا يثق بى ؛ إنه دائماً يظر من فوق كتفى.

المدير التنفيذى الأعلى : إننى أحطم ظهرى لكى أقضى وقتاً مع العاملين معى وأدربهم . إنهم لا يقدرون ما أقوم به من عمل .

الفقرة الثـانية تحتاج منك إلى خلـو البال حتى تتأمل طبيعـة المشكل فيها وتصل إلى التفهم الكامل لما قـد نسميه نحن فى حيـاتنا العام بحسـاب الأرباح والخسـائر فى عـلاقـة ثنـائيـة بسيطـة جـداً ... انظـر كيف يستطيع هـؤلاء «النظريون» أن يضعـوا مثل هذا النموذج «الحاد» للصراع «الفعـال» فى علاقة ثنائية كهذه العلاقة .. دعك من كل هذا التقـديم الذى أقدم به الفقرات واقرأها على مهل .

لقد قارن مُنظِّـرو الألعاب ديناميكية العـلاقة الثنائية بنمـوذج يطلق عليه «مأزق المسجـونين» ، ففى إحـدى الأمثلـــة القصصيـة لهذا النمـوذج هنـاك مسجونـان متهمان بارتكـاب جريمة خطيرة وقـد وضع كل منهما فى الحبس الانفرادى ، وكان المدعى على يقين من أنهما مذنبـان ، ولكن كانت تعوزه الأدلة الكافية لإدانتهما ، وهكـذا أخبر كلًا من المتهمين أن أمامـه اختياراً بسيطاً : أن يعترف ، أو لا يعترف ، فإذا تعاون المسجونـان معاً ولم يعترف أى منهما، فإن كلا منهما يمكـن أن يتوقع الحكم بـالسجن سنة واحـدة جزاء حيـازة سلاح بطـريقة غير قـانونيـة ، أمـا إذا اعترفا كـلاهما فإن كلًا منهما سيحكم عليـه بـالسجن ثماني سنوات جـزاء الجرائم الخطيرة ، أما إذا اعترف أحـدهما ولم يعترف الآخـر فـإن رافض الاعتراف يمكن أن يتـوقع الحكم بـالسجن عشر سنوات ، ولكن الـذى اعترف سوف يلقى معاملـة رفيقة بـاعتبار أنه «شـاهد الملك» ومن ثـم يمكن أن يتـوقـع أن يطلق سراحـه ويـوضع تحت المراقبـة البسيطـة.. هـذا مع العلم بأن السجينين لا يُمكّنـان مـن أن يتصل أحـدهما بالآخـر . والآن ، فكل من السجينين يواجه مأزقاً : « إذا كـان الآخر سيعترف ، فمن الخير لى أن أعترف كذلك . إذ أن ثمانى سنوات أفضل من عشر ، أما إذا لم يكن سيعترف فمن الخير لى أن أعترف أنـا ، إذ أننى ـــ حينئذ ـــ سوف يطلق سراحى برفق ، وهكـذا يبدو أنـه من الخير لى أن أعترف بغض النظر عما يفعل

الآخر ، ولكن إذا اعترفا كلانا فإننا ـ معاً ـ سنكون أسوأ حالاً مما لو رفضنا ـ معاً ـ أن نعترف» .

كان هذا هو مأزق المسجونين فهل تستطيع الآن أن توافقنى على أن هناك ما يسمى بالتفكير الرياضى البيولوجى الذى استطاعت هذه الحضارة الأمريكية حتى الآن أن تجد فى صياغته وأن تجيد وإن لم تكن قد بلورته تماماً بعد !! .

ثم هل تستطيع بعد ذلك ياسيدى أن توافقنى على أن هذا الجانب من الحضارة الأمريكية كان ذا شأن عظيم فى حرب الخليج .. هل تأذن لى ياسيدى أن أختم هذا الفصل بالفقرة الثانية التى وعدتك بك وهى فقرة من خرافات ايسوب الشهيرة عن الريح والشمس: «ذات مرة ثار نزاع بين الريح والشمس ، أيهما أقوى وأشد . وفى سبيل إنهاء الجدال تحدت الشمس الريح فى مباراة : أيهما يستطيع أن يحمل عابر طريق على أن يخلع معطفه فهو الأقوى . كانت الشمس واثقة أنها ستفوز ، ولذلك تركت الريح يأخذ الفرصة الأولى ، أما الشمس فقد اختفت وراء سحابة تنتظر ، وأما الريح فقد أثار عاصفة ثلجية ، ولكن كلما اشتد عصف الريح تشبث عابر الطريق بمعطفه حول جسده ، وفى النهاية لم يسع الريح إلا أن يستسلم ، وحينئذ خرجت الشمس من وراء السحابة وبدأت تضىء وترسل أشعتها بكل قوتها نحو عابر الطريق الذى بدأ يحس الحرارة والدفء ، وإذ أخذت الحرارة ترتفع رويداً رويداً خلع معطفه وجلس فى الظل ليستريح» .

الفصـــل الثـالث

كليفيلاند : المدينــة والمجــتمع

(١)

حوالى ١٧٦٥ أى منذ أكثــر من مائتى عام كان الجنــرال جورج واشنطن أول من تنبأ بهذه المدينة . تعبير غريب طبعــاً أن تقرأ فى تاريخ مدينــة أن فلاناً هــو أول من تنبأ بها . لكننى لا أجـد أدق من هـذا اللفظ لأعبر عن أن واشنطن لاحظ أن مصب نهر كــايهوجا فى بحيرة إيرى ينــاسب مجتمعاً تجاريــاً سريع النمو . بعدها بحــوالى ثلاثين عاماً وفى ١٧٩٦ جاء موسيس كليفيــلاند بفريق من شركة كونكتيكت للأراضى واختار موقعــاً كان يسمى بالاحتياطى الغربى وأقام عليه نواة كليفيلاند .

فى ١٨١٠ أصبحت هــذه المدينة هى المجتمع الــرئيسى فيما يسمى بإقليم كايهوجا. أحب هنــا أن أذكر لك أننى أترجم County بإقليم . وأصل الكلمة فى الإنجليزية فيما يبدو مأخوذة من الكونت ، فالكلمة على هذا تشير إلى ممتلكات الكــونت . وقد تترجــم بمقاطقــة أو إقليم و لعلهــا هى المرادف لــلإقطاعيــات والابعــاديات . و فى أوائل القــرن التاسع عشر بــدأت صنــاعة السفن فى هــذه المدينة. كان لا بــد بعد ذلك من تطوير الاتصــال النهرى البحرى لهذا المجتمع

الجديد ولا بد أن نفهم أن كثيراً من التحضر الــذى أصابته أمريكـا كان نتيجة سعيهـا الحثيث فى تطـويـر مـرفـق النقل والمواصـلات. والطـرق السريعـة والطائرات والمطارات والتليفونات والفاكس والبريد الجوى الأمريكى منذ أوائل القرن التاسع عشر . خذ مثلاً على ذلك إنشـاء قناة إيرى فى ١٨٢٥ ثم توصيل هذه القناة بنهـر أوهايو نفسه بعد سبع سنـوات فى ١٨٣٢. وما صاحب ذلك من ازدهـار صناعـة السفن وتجارتها فى مجتمع كليفيـلانـد الجديد. فى عـام ١٨٣٦ بلغت كليفيـلاند مجداً عظيماً هكذا يـرون أو يروون ... وذلـك: أنه فى ذلك العـام وصل تعـداد سكـانها إلى حـوالى ستـة آلاف نسمـة !!. وهـا هى كليفيلانـد فى أواسط القرن التـاسع عشر- تبـدأ فى تشغيل ميناثهـا فى حوالى ١٨٥٢ وتبرز فى أثناء الحرب الأهلية كمركز صناعى هام وفى ١٨٧٠ تتأسس فيها بفضل جون روكفلر شركة ستاندرد الشـهيرة للبترول وتبدأ معالم المدينة والتحضر والحكـومة المحليـة تأخذ طـريقهـا إلى كليفيلانـد فى مطالع القـرن العشرين. وفى أثناء الكســاد العالمى العظيم فى الثـلاثينات بنت كليفيـلاند أول مشروع للإسكان الشعبى فى الولايات المتحدة الأمريكية.

فى السبيعينات حظيت كليفيـلاند بشهرة اقتصاديـة سلبية حين أصبحت أول مـدينـة أمـريكيـة كبيرة تعانـى الإفلاس منـذ الأزمـة الاقتصـاديـة فى الثلاثينات، وتحطمت صناعة السفن فى كليفيـلاند بسبب ارتفاع اليد العاملة ، ولكنها سرعـان ما استعادت وضعهـا فى الثمانينات وأصبحت ثـانية من أهم المراكز الأمريكيـة . هذه هى كليفيلاند ـــ عاصمة إقليم من أقاليـم أوهـايو ، و تبقى لأوهايو عاصمتها كولومبوس.

(٢)

من الطبيعى أن أعدد لك الجامعات فى هذا الإقليم (لا فى الولاية كلها) لعلك طالعت اسم جامعـة كيس ويسترن. هناك كذلك جامعة كليفيلانـد الحكومية

الحكوميـة (أجدنى مضطـراً إلى ترجمة State فى كل اسم جـامعة تحتـوى هذا اللفظ بكلمـة الحكوميـة وكنت فيما مضى أتبع مـا اعتـدنا عليـه فى مصر من ترجمتها بجـامعة ولاية كذا . مع أنـه لا توجد ولاية مثلاً اسمهـا كليفيلاند).
تمثل هذه الجامعة انـدماج جامعة كاس وجـامعة ويسترن ريسيرف الذى تم عام ١٩٦٥ ولكن تاريخ هذه الجامعة يعود إلى حوالى ١٨٢٤.

نأتى إلى الكليات العليا :

بالدوين ولاس	أنشئت عام ١٥٤٨
كايهوجا	عام ١٩٦٣
ديك	عام ١٨٤٨
معهد كليفيلاند للفنون	عام ١٨٨٢
معهد كليفلاند للموسيقى	عام ١٩٢٠

(٣)

« البلان ديلر » هى كبرى جرائد أوهايو ، وهى الجريدة التى استعيض بها هنا عن الأهرام القـاهرية كل صباح . وتقع هذه الجريـدة فى مائة صفحة على الأقل كل يـوم ، فـلا تقل صفحاتها الـرئيسيـة عن ٥٠ صفحـة عدا مـلاحق الاعلانات الملـونة التى تبلغ ثلاثة أضعـاف هذا الحجم ، تتضخم إلى أكثر من هـذا بكثير فى أيـام الآحـاد بـالطبع ، ولكـن صفحـات كـاملـة من هـذه المائة مخصصة بالطبع لـلإعلانات ؟ التى لا بد أن تكلفتهـا أقل بقليل من التكاليف المناظرة فى مصر. وإلا فكيف بالله عليك تجد صفحة كاملة قد أفردت للإعلان فقط عن مسحوق غسيل وأنواعه وعبواته المختلفة مثلاً .

استطيع أن أقول لك اننى كنت اطالع هذه الجريدة كل يوم على مرتين ففى حوالى الساعة السابعة وخمس دقائق وقبل أن تتحرك سيارة ربه البيت أطالع

بسرعة أربعة أو خمسة مواضع من الجريدة . أطالع آخر تطورات الحياة الدولية وبصفة خاصة حرب الخليج . أو قل بقايا حرب الخليج من حرب أهلية فى العراق إلى أسرار تتكشف فى الولايات المتحدة ، هذا فى عناوين الصفحة الأولى ، ثم أطالع فى نهاية الملزمة الثانية من الصحيفة أنباء الطقس وموعد غروب الشمس أى موعد الإفطار الرمضانى!! وفى الملزمة الرابعة ألقى نظرة على السعر الخاص بالجنيه المصرى أمام الدولار فى الجزء المخصص لأسعار العملات الأجنبية ، والجنيه المصرى على أية حال عملة أجنبية بالنسبة للدولار . دعك من كون العملة الأجنبية عملة صعبة أم لا فهذه تعبيرات مصرية سيكولوجية!! وفى الإعلانات المبوبة ألقى نظرة على الركن الخاص بأجهزة الكمبيوتر .. وفى صفحة برامج التليفزيون ألقى نظرة أخرى على برامج القنوات الرئيسية، وكل نظرة من هاتيك قد لا تكلفنى عشرين ثانية كما تعلم. ولكن تصفح المواضع المختلفة حتى تصل إلى ما تريد هو ما يأخذ منك الوقت .

بعد عودتى من المستشفى أقرأ على مهل هذه الجريدة المحترمة ، صياغة الصفحات الأولى لا تختلف كثيراً عن صياغة «الأخبار» القاهرية ، أما العناوين فأميل إلى «الجمهورية» منها إلى الأهرام أو الأخبار. أسماء المحررين والمراسلين تحظى باحترام تام من حيث أبناطها والعناية بها. وكثير من المواد لا تحمل توقيعاً على الرغم من إنها عصارة فكر وجهد مبذول. صفحة الرأى فى الداخل لها رئيس تحرير مسئول ، واسمه موضوع فيما يسمى بالترويسة مع الناشر والمدير العام ورئيس التحرير. بل إن الترويسة نفسها موضوعة أعلى صفحة الرأى ولا فى الصفحة الأولى . الاشتراك فى الجريدة أسبوعى، ويبدو أن الاشتراك السنوى الموجود عندنا لم يعد يناسب روح الحياة السريعة المتغيرة وإن كان سيظل مناسباً لمصر..

يعجبنى فى هـذه الصحيفة اهتمامهـا البارز بـالكتب الجديـدة وبالحيـاة الثقـافيـة على وجــه العمـوم، وللصحيفـة ملحق أسبــوعى لبرامج الإذاعـة والتليفزيون يتناول كل شىء من البرامج بالتفصيل، ثم إذا هى تتكرر كل يوم فى الصحيفة فى صفحة كاملة نصفها الأيمن للقنوات السبعة والعشرين (تسعة فوق تسعة فوق تسعة) والنصف الأيسر يلقى الضوء على برامج مختارة وعلى برامج الراديو .

وأحب أن أذكـر لك أننى خـرجت من مطـالعــة هذه الصحف الأمـريكيـة بانطباع أن إعلاناتها إعلانات وقتية بمعنى أنها تؤدى الغرض الوقتى ليس إلا. فى أوكازيون يوم السبت تجد صوراً لكل ما هب ودب، والأسعار فوقها، واسم المحل وعنـوانـه، وكان اللـه يحب المحسنين . طبعـاً الصـور منظمة وجميلـة والأسعار مكتـوبة بأبنـاط بارزة ولا بأس من فتـاة تضحك أو طفل يصيح .. ولكن الإعلان كله على بعضه من لزوم الشىء. مجرد خطوط ، ومجرد تنسيق، وليس هناك مساحــة لما يسميه فنانو إخراج الصحف بـراحة العين، وإنما هو استغلال للمساحة المتاحة بطريقـة بدائية. طبعاً هم يعرفون ذلك وأعتقد أنهم يأخذون الإعلان من صاحبه كما يجهـزه، هذه مساحة ٣٠×٥٠ مثلاً فالمعلن يحضر لهم الإعلان جاهزاً إلى درجة أن الأفلام مفصولة ألوانها، وهم يطبعونها هكذا.

ولا أبـالغ إذا قلت لك إنهم فى جريـدة السبت أو الأحد يتحفـونك بعشرات الصفحات الإعلانيـة الملونة ذات الأحجام المتنـافرة . وليس لها أرقام اللهم إلا تسلسل خروجها من ماكينات التوضيب فوق بعضها.

والعاملـون فى الصحافة يفهمون المسألـة فى منتهى البساطة فـالصحيفة تستغل انتشـارها وجمهـورها بأن تـوزع هذه الإعلانـات لأصحابها مقـابل

خروجهـا مع الصحيفـة من دار الجريدة ودخـولها معها البيـوت. والمعلنون بالطبع سعداء بما يدفعون للجريدة فهم سيطبعون الإعلان أيما كان الوضـع. وسيدفعون غالياً من أجل توزيعـه بالبريد أو من أجل بث الصبية الصغار به على أبواب المساجد والمدارس كما تفعل البلاد النامية.

وقديماً، و فى مطلع الصحافة المصرية وقبل حوالى قرن من الزمان كان فى مصر صحيفة توزع بـالمجان إذ تعتمد تماماً على الإعلانات. هنـا فى كليفيلاند توجد أكثر من صحيفة من هـذا النوع. ولكنى أعتقد أنه لا يزال من الأوقع أن تكون الصحيفة بثمن رمزى. ومع هذا فإن جيلاً من مديرى الصحف فى مصر لا يكاد يقـدر نعمة «الثمن الرمـزى» على الصحيفة ويريـد أن يشتط بأسعار الصحف ما أمكنـه ذلك مع أنهم يعلمون تماماً أنه مهما رفع سعـر الصحيفة فلن يفى بتكاليفها.

يعجبنى فى «البـلان ديلـر» أيضاً تلـك الكلمات الرصينـة التى تتضمنهـا صفحة الـرأى بل عناوين هذه المقـالات نفسها حيث التعقل والنظـرة البعيدة بعيداً عن عبارة الـرأى الشائع . وعبادة الرأى الشائع مأساة خـاصة إذا كان هو رأى الشارع.

ويعجبنى أيضاً أن الجريدة لا تستنكف شـأنها شأن الصحف الأمريكية أن تعطى لحرب الخليج خمس صفحات أو ست صفحات كاملة ، ولكنى أتألم كثيراً للصور التـى تنشرها عن خراب الكـويت أو تشرد الأكراد أو ظلـم نظام العراق لشعب العـراق ولجيش العراق . يعجبنى أيضـا أن الجريدة خصصت للكاريكاتير صفحـة وجزءاً من صفحة أخرى وأنها تنشر صوراً كـاريكاتيرية لأكثر من عشرين رساماً وكنت أتعجـب هل كلهم معينون ويتقاضـون رواتب أم مثل الـذين يـراسلون مصطفى حسين فى الأخبـار ؟ وحين زرت الجريـدة

سألتهم وعرفت أن هناك نقابة لـرسامى الكاريكاتير وأنهم يشترون من هذه النقابة هذه الرسومات.

توزع« البلان ديلر » ٤٣٠ ألف نسخة يومياً وفى الآحاد يرتفع توزيعها إلى ٥٧٠ ألف نسخة، و هى بذلك الجريدة الخامسة عشرة على مستوى الولايات المتحدة . ممـا يعنى نجاحـاً حقيقياً لها إذا تـذكرت أن كليفيـلاند هى تقـريباً المدينة الثـانية عشرة من حيث ترتيـب السكان. لهذا فإن البلان ديلـر فخورة بأنها الأولى فى الاستحـواذ على سكـان منطقتهـا إذ يقـرأهـا ٥٨٪ من قـراء الصحف فى الاقليم الـذى تصـدر فيه . وهى الأولى كـذلك فى الاستحـواذ على سكان منطقتهـا فيما يتعلق بعددها الأسبـوعى حيث يقرأهـا حوالى ٧١٪ من هـؤلاء . وفى هذه المكـانـة تليها بفـارق بسيط جـداً (٧١٪ أيضا) الـواشنطن بوست.

ومبانـى البلان ديلـر تم بناؤهـا فى ١٩٢٠ على سبعة هكتـارات ، فى خطة المستقبل أنها ستمتد إلى ٥٠ هكتار إضـافية.

ويعمل فى هـذه الصحيفـة ألف وثمانمائة فقـط من بينهم ٣٧٠ صحفى ومعلق وسأذهلك حين أقـول لك إن كل هـؤلاء الصحفيين يعملـون جميعـاً فى صالة واحدة تضم ما يزيد على ٢٠٠ كمبيوتر !!.

طبعاً هذه التى اسمهـا صـالة هى الدور الثانى كلـه . ربما تبلغ مساحتها مساحـة أكبر من صالـة تحرير الأهرام ولكنهـا ليست بجمال صالـة تحرير الأهرام.. إنما هى مزدحمة ومكدسة ومُقبضة تماماً أيضـاً .

منذ ثلاثين عاماً كان عـدد العاملين فى البلان ديلر ١٨٠٠ أيضاً ، ولكن مع اختلاف النـوعية. فقـد كان هناك ٥٠٠ عـامل فى قسم اللينوتيب وحـده وكان

هنـاك ٢٥ آخرون فى قسم السيتريـنـوتيب. اليـوم ليس هنـاك أحد فى هـذين القسمين لأنه لم يعد لهما وجود .

مدير الشئون العامة يكمل هذا العام ثلاثين عاماً من العمل فى البلان ديلر، وهو يرى أن فى كليفيلاند مؤسستين عالميتين : الكلينيك التى يأتيها الناس من كل مكان، وشركة البترول الكبرى التى لها فـروع فى كل دولة كأنها سفارات . وهو سعيد جداً بالعلاقة بين كليفيلاند كلينيك وبين الصحيفة. وهو يـروى لى كيف ضيعت الصحيفـة أكبر خبطـة صحفيـة فى العـام الماضى حين حصل محررها على تصريح من د.عـاطف صدقى رئيس الوزراء (الـذى كان يجرى فحوصاً فى كليفيلانـد كلينك) بأن مصر ستحارب فى أزمة الخليج مع الحلفاء . ولكن رئيس التحريـر المسئول يومهـا لم يبرز التصريح لا لشىء إلا لأن الذى حصل عليه محرر إقليمى فى كليفيلاند. وفى اليوم التالى كانت عناوين صحف العالم كلها مخصصة لهذا الموضوع بعد تصريحات الرئيس مبارك .

كان من حظى حين زرت البلان ديلـر وطفت بين أرجائها أن التقيت بكبير المحررين وبرئيس القسم الفنى وبمديـر الانتاج وقد أطلعونى جميعاً على كل خططهم ومـاضيهم ولكنى فيما يتعلق بكتـابى هذا لا أجـد نفسى قـادراً على التوسع فى روايـة تفصيلات العمل الصحفى. وفى ذات الـوقت لا أستطيع منع نفسى من تسجيل بعض اللمحـات السريعة عن هـذه الجريدة . و تضم هـذه الجريدة كما قلت لك ٢٧٠ صحفياً وليس فيها إلا صـالة تحرير واحدة تتسـع لكل هـؤلاء ولحوالى ٢١٠ كمبيوتر شخصى أمـامهم يستطيعون مـن خلالها الاتصال بالمندوبين وكتابة ما يريدون وتنظيم ما يسمى بسكرتارية التحرير . مطبعة الجريـدة لا تبدأ العمل إلا بعـد التاسعة مسـاء وتستمر حتى الـرابعة والنصف صباحاً ـــ وفى أيام السبت والأحد تبدأ المطابع مبكرة منـذ السادسة لطباعة الملاحق!!

(٤)

فى كليفيلاند أعرق أوركسترا سيمفونى أمريكى داومت على الاستماع إليه فى كل أيامى من خلال الراديو وإن لم أسعد بحضور إحدى حفلاته ولكننى حضرت مع أحد الزملاء الفرنسيين حفلة موسيقية فى جامعة كيس ويسترن الحفلة تحت شعار «موسيقى الجاز فى الشابل» .

الفرقة مجموعة من طلاب الجامعة . اصطلاح طلاب الجامعة هنا لا يقتصر مثل مصر على طلاب مرحلة البكالوريوس ولكنها تعنى كل الطلاب طلاب الماجستير والدكتوراه وهذا الفرنسى الذى يقود الفرقة طالب ماجستير. وقد بدأت الحفلة فى الثامنة و انتهت حوالى العاشرة .. أما عدد الحاضرين فقليل.. ولكن أحداً منهم لا يسلك سلوكاً يجعله أقل من مستوى الحضور .. العازفون سعداء .. والمستمعون سعداء .. وينتهى الحفل فينصرف كل ومعه سعادته إلى حال سبيله .

(٥)

هل ذهبت الفلاتس ؟ لا بد أن تذهب الفلاتس ما دمت فى كليفيلاند! أم لم تذهب الفلاتس بعد!! ستكون فى غاية السعادة إذا ذهبت الفلاتس. هكذا تعاقبت التعليقات مرة بعد أخرى من العائلة التى أسكن بيتها ومن الزملاء الأطباء فى الكلينك، بل ومن الزميل الأرجنتينى الذى كان مثلى يسكن فى هذا البيت فى أغسطس الماضى وجاء لزيارتنا ليوم واحد.

قلت لنفسى لا بد أن أذهب إلى الفلاتس تحفة كليفيلاند، الطريق طويل ربما لأنى قادم من شرق المدينة، والفلاتس فى غربها ولكنه بالفعل بعيد.

القنطرة التى تعبر النهر جميلة إلى أقصى حد ، فخامتها لا توصف، تأمل أن هذه المعجزات بنيت منذ مائة وخمسين عاماً ونحن فى مصر لا نزال ننتشى عند افتتاح كوبرى هنا أو هناك على النيل العظيم ونقول ساعتها : ويعد هذا أطول كوبرى على النيل، وأحياناً أعرض ، وأحيانا نتواضع فنقول أنه يعبر النيل عند أعرض نقطة فى ممره . كوبرى بنها على النيل التى تغنى له داليدا وهى فى باريس « على كوبرى بنها يانور عينى منديل حبيبى طرف عينى» يتبرأ تماماً من أغنية داليدا ويؤكد للرائح والغادى أنه لم تقع عليه هذه الحادثة أبداً ، وأنه إذا كان ولا بد أن منديلاً طرف عين محبوبة فقد يحدث ذلك على كوبرى آخر إلا كوبرى بنها الاستراتيجى الذى تقف أمامه السيارات فى حالة انتظار وجمود ربما لنصف ساعة .. التيار واقف إذن والمنديل لا يتحرك وبالتالى لا يطرف عيناً حتى وإن كانت عين داليدا .. كوبرى بنها هذا العظيم الذى كان أعظم كبارينا استراتيجية ، الذى بنى فى عهد الملك فؤاد حوالى ١٩٣٢ يتواضع أمام هذا الكوبرى البسيط على نهر بسيط فى بلد بسيط ومع هذا فنحن فخورين بأننا دولة زراعية .. وبلد النيل . وأن عندنا طرقاً زراعية وطرقاً تعبر النيل.

قد تظننى ياسيدى فى حاجة الآن إلى الاعتذار عن هذا الاستطراد الذى لامبرر له .. لكن عذرى أنى كنت أحب أن أصور لك حالتى النفسية وأنا ذاهب إلى الفلاتس بأقرب ما يكون التصوير إلى الحقيقة .. وها أنت ترانى الآن وقد انتابنى الشعور بالتواضع .. وقلت لنفسى والآن سنرى الفلاتس حيث تتواضع أمامه كل فنادقنا وكازينوهاتنا ونوادينا التى على النيل الساحر فى القاهرة.

لن أحدثك عن الفلاتس الذى كانت مضيفتى فخورة به وهى تطأ الأرض ولكنى أؤكد لك أن أى مقهى نيلى متواضع فى أى قرية من قرى مصر العامرة

أكثر حياة ورقياً وفناً وفندقــة من هذا الفلاتس الميت الصـامت .. عند هذا الحد زال تواضـعى وبدأت أفهم لماذا يقال إن مصر هى بلد السياحة والمتعة الجميلة. هى البلد الذى لا بد للسـائح أن يراه حتى وإن كانت الكبارى التى فيه لاتطرف عيون المحبوبــات ، فإن الكباريهات تطرف عيون المحبـوبات . سوف تتهمنى يــاسيدى بــالتحامل على الفــلاتس قــرة عين أهل كليفيلانــد .. لك أن تتهمنى ولكنى سـأذكر لك كل مزايا الفلاتس.

هناك فى جانب واحــد من الفلاتس توجد شجــرة مستعارة من ذات الورق العريض يسـمونه Bird of pardise إلى جوارها شجرة أخرى من نوع Oleander هــذا الشـجر يحتــوى على مادة مخدرة .. ربما لا يعـرف الطيبون من أمثــالك وأمثــالى أنــه يحتــوى على هــذه المادة المخدرة ويكتفــون بــالإعجــاب بشكلــه المتناسق.. أما أن الشـجـرتين مستعارتين فلأننا كنا فى مــارس ولا يزال الجليد هو صـــاحب السيادة .. ولما تبـزغ شمس الربيع بعد ...هــذه ميزة من مـزايا الفلاتس .

الميزة الثــانية إن للفلاتس مساحــة واسـعة لانتظار السيــارات. ولكن هذه الميــزة تتبخر (أو تتضـــاعف فى نظرك) إذا علمت بقيــة قصتها .. فهــذا الجراج يديره مجمــوعة من(البلطجية) المحترمين .. وصلنا إليهم بسيــارتنا فإذا بهم يقولون : لا توجد أماكن بينما الأمـاكن فسيحة أمام نـاظرينا .. فتحت مضيفتى محفظتها الصـغيرة ، وشاهدوا أوراق النقد من فئة الدولارات الخمسة .. أو قل على طريقــة المصريين من فئة الشلن .. فقال هــؤلاء إذا كان الأمر كــذلك فهناك أماكن .. أخذنا التذكرة ومضينا بالسيارة قرب باب الفلاتس هنالك أقبل علينا من كشـكه الزجاجى حــارس آخر .. أخذ السيارة منا بعد مــا أخذنا تلفونها. و انطلق بها يضـعها حيث يريد للنظام أن يتم .. فلما عزمنا على المغادرة لمحنا من كشـكه الزجاجى وأتـــى لنا بالسيارة حيث وقفنا بالباب.. كــان الدكتور رفعت

حـواس فى محطة مترو الأنفـاق بباريس كثيراً مـا يلفت نظرى إلى حقيقـة أن المترو يقف بحيث يكـون باب عـربة الدرجـة الأولى (التى هى فى الوسـط منه دائماً) أمام فتحة الرصيف مباشرة بحيـث لا يتعب (سعادة البيه) فى ملاحقة عربات المترو!! . الميـزة الثالثة فى الفلاتس أنـه لا يتقاضـى منك إلا الإتاوة التى هى غير كافية لأن تكون حداً أدنى لفرد واحد!! .

(٦)

صحيح أن فى كليفيلاند وحولها كثيراً من الأحيـاء الراقية والمواقع المتميزة شبـه الآمنة ولكن كل ذلك لن يبقى فى ذهنـك إلا مرتبطـاً بهذا الرعب من هـذه الجرائم التى لا تستحى وهى تفـرض نفسها كـل صباح فى عنـاوين صحف الصباح وكل ساعة فى مقدمات نشرات التليفزيون المحلية.

كان أحـد أصدقـائنا قـد جاء إلى كليفيـلاند مشبعـاً بما فيه الكفايـة بكل القصص الحقيقية عن الإجـرام هناك .. وحين وصل فى حوالى السـاعـة الثالثة صباحـاً إلى ما كـان يسمى بفندق الجامعـة .. وجد حـارساً أسـود ليس من سلطته أن يتيح لزميلنا أى شيئـاً إلا أن يبقى مع حقائبه فى المدخل حتى يأتى موظـف الصباح ! صاحبنـا يسأل الحارس هل هناك جـرائم قتل ، والحارس يجيبه نعم كثيراً مـا أكون فى طـريقى فيحدث هذا أمـامى هنا مثـلاً، والرعب يستبـد بصاحبنـا ولكن مـاذا فى وسعه أن يفعـل ؟ يستديـر الحارس فيلحظ صاحبى أن فى جيبه شيئاً ما يبرز فى نهايته قبضـة معدنية تماماً كتلك التى فى المطواة المسماة فى مصر بقـرن الغزال .. يقرأ الشهـادتين وينتظر الموت، وفيما بعد يكتشـف مع الأيـام أن هذا الشىء الذى فى نهايته قبضة معـدنية ليس إلا المشط الذى يستخدمه الزنوج..

ومن الطريف أن صديقاً ذهب إلى الحلاق فسأله هل تريده على هيئة مربع أو على هيئة دائرة ؟ وبحسن نيـة يظن صاحبنا أنه يسـأل على عـادة أصحاب

صالونات الحلاقة فى مصر عن الهيئة التى يكون عليها شعره فى مؤخرة رأسه، ويجيب على هيئة دائرة .. فيفاجأ زميلنا فى النهاية بشعره وقد تحول إلى الهيئة التى يراها فى شعر الزنوج صندوق مدور من الشعر كتاج فوق رأس شبه أصلع !!.

(٧)

فى الأسبوع الأول من إبريل كان علينا أن نقدم الساعة فقد بدأ التوقيت الصيفى فى مدينة كليفيلاند، لعلك تظن أن الربيع قد حل على المدينة على الأقل... لا ياسيدى فلا يزال الجليد يكسو وجه هذه المدينة ببياض محبب إلى النفس ولكنه أحيانا غير مريح بالطبع . ولكنك لا بد أن تلتزم بالتوقيت الصيفى ! فى عز الشتاء!! إلى هنا وليس فى الأمر شىء . و لكن الطرفة الكبرى ياسيدى أن مسألة التوقيت هذه من المسائل الخلافية بين الولايات، فهناك ولايات تقدم الساعة وولايات لا تقدم الساعة .. وهكذا تصبح فى حيرة من أمرك وأنت تخاطب ولايات أخرى بالتليفون.. فلا بد أن تحسب أولاً فروق التوقيت الموجودة فى الولايات المتحدة الأمريكية فالتاسعة فى لوس أنجلوس هى الثانية عشرة فى نيويورك ثم تنظر هل تلتزم هذه الولاية بالتوقيت الصيفى أم لا .. فإذا كانت معك على نفس خط العرض ولا تلتزم بالتوقيت الصيفى فهى لازالت فى السابعة على حين أنك فى الثامنة، لا تبتئس إذن إذا لم تجد الموظفين يردون عليك فى ذلك المستشفى العظيم فى الولاية الأخرى .. وربما يكون هناك فرق طبيعى فى التوقيت بحكم خطوط العرض فإذا به يتلاشى مع تقديم الساعة فى ولاية أكثر بعداً عن الأطلنطى تقدم ساعة حين تحادثها من ولاية على الأطلنطى لم تقدم الساعة.

لهذا فمن الطبيعى أن تجد الناس يسألون بعضهم فى التليفون كم الساعة الآن عندكم ؟ وهم ينظرون فى ساعاتهم! على أن أطرف ما فى موضوع التوقيت

الصيفى ما حكاه لنا الدكتور أسامة سليمان من أن بعض المدن الصغيرة فى كثير من الولايات لا تلتزم فى كثير من الأحيان بتقديم الساعة رغم التزام الولاية كلها بذلك !! لماذا أيها السادة ؟ فيقولون لك حتى لا نزعج البقر الذى تعود على تناول طعامه فى ساعات معينة فى الصباح، فإذا نحن نغير له مواعيده بحكم أن الساعة تتغير فى الظاهر فقط . يقصدون الساعة البيولوجية التى سأحدثك عنها فى موضع آخر من هذا الكتاب.

ها هو الربيع يبدأ فى كليفيلاند وها هى الصحف تزف للناس فى إعلاناتها أسعاراً متعددة للشركات التى تتولى تنسيق الحدائق وزرع الشتلات وها أنا اليوم استمتع طوال الصباح بمشاهدة هذا الجناينى النشيط ومعه الشتلات الجميلة للزهور الصفراء والحمراء والزرقاء ، يحرث الأرض بمحراث كهربائى يدفعه بيده ليس إلا .. صوت مزعج ولكن لا بأس فكل الآلات الأمريكانية مرتفعة الصوت على ما يبدو ، ثم هو ينتقى الشتلات وينتقى لها أماكنها المحددة سلفاً وها هو المنظر يتغير فى أقل من ٢٤ ساعة من شتاء تام إلى ربيع تام !!! صحيح أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة.. فهذه الطبيعة ، الجميلة طبيعة حقاً ولكنها غرس الإنسان والطبيعة ، والإنسان من صنع الله الذى أتقن كل شىء .

الفصل الرابع

فى بيت عائلة أمريكيّة

(١)

لا أعرف بـالضبط هل أقع تحت طائلة قـانون العقوبات الأمـريكى إذا أنا تحدثت بشىء من التفصيل عن البيت الذى عشت فيه مع أسرة أمريكية قرابة شهـرين فى كليفيلانـد على الرغـم من أن الأسرة تعلم تماماً أنى سأكتب عنهـا وعن بيتها.. وربما تعلم على وجه التقريب كثيراً من مضمون هذا الذى أكتبه.

كنت حريصا عند الترتيب لهذه الزيـارة أن أقيم فى بيت عائلة أمريكية لأن قضاء مدة طـويلة فى فندق ليس بالأمر التى تتحمله نفسيـة أى إنسان سوىّ حتى وإن تمنى بعض الناس ذلك فى ساعات ملل من مسئوليات البيوت!!

هذا هو السبب الثـالث أما السبب الأول فهو أننى كنت أريد مـا يريده كل إنسان على ظهر الأرض من أن يستكشف حياة الأمريكيين فى بيوتهم بعد هذه الصـور المتلاحقـة التى تطلعنـا عليهـا جميعاً السينما الأمـريكيـة عن البيت الأمريكى الفاخر والاسرة الأمريكية المفككـة. أكاد أجزم ياسيدى ولكنى متأكد من أنك تصدقنـى إذا قلت لك بدون يمين إن هنا أمـريكيين أيضاً يـريدون أن

يشاهدوا على الطبيعة صورة ذلك البيت الامريكى التى تقدمها السينما الأمريكية .. تماماً كما أن من المصريين مَنْ يريد أن يتأمل حياة القاهريين الذين تصورهم السينما المصرية وكأنهم لا يعرفون شيئا إلا كباريهات شارع الهرم. هذان هما السببان الأول والثالث، أما السبب الثانى فسبب شخصى بحت، فقد كنت فى حاجة إلى فترة من الاستجمام البدنى والذهنى والاجتماعى أقضيها فى قراءة القرآن ومذاكرة كتب الطب وكتابة بعض التجارب الذاتية فقط، وكنت أعتقد [ويبدو أننى كنت مصيباً فى هذا الاعتقاد] أن وجودى فى بيت غير بيتى كفيل بهذا .. ولهذا كنت عازماً وقد نفذت ما عزمت عليه على ألا أقود سيارة ، أو أخرج بليل أو أتحدث فى التليفون إلا فى أضيق الحدود. وعلى قدر ما أسعدنى أن تحقق لى هدفى هذا رغم كل الدوافع والمغريات بشراء سيارة أو قيادة سيارة أو استئجار سيارة، فقد اسعدنى بالطبع أنى خلوت إلى نفسى فترات متتالية استطعت أن أكتب فيها ضمن ما كتبت هذا الكتاب.

ولكنى أريد أن أحدثك قبل هذا عن أول الأزمات فى الوصول إلى منزلى الجديد. ذلك أنه فى صباح الأربعاء السابق على سفرى تلقيت بالتلكس فى الزقازيق رسالة فحواها أن العائلة الأمريكية لن تكون قادرة على استقبالى فى الموعد الذى حددته شركة الطيران المصرية فى الثانية عشرة وسبع دقائق بعد منتصف الليل ولهذا فإن علىّ أن أحاول تغيير موعد وصولى إما مبكراً يوم الجمعة وإما فى صباح اليوم التالى يوم السبت. أو أن أقضى ليلة فى الفندق وقد حجزوا لى من باب الاحتياط ليلة واحدة يُلغى حجزها تلقائياً إذا لم أحضر حتى الثالثة صباحاً .

يمر أمام عقلى شريط الذكريات المقروءة حين كان المصريون يسافرون على مصر للطيران فقط ويضطرون لكثير من التغييرات غير المنطقية فى

رحـلاتهم من أجل الالتزام بمصر للطيران. وهـا هى مصر للطيران الناجحـة الرابحة تعود فتضطرنا إلى مثل هذا فى مطالع العقد الأخير من القرن العشرين. فهى لا تسافر أمريكا إلا يومى الجمعـة والأحد. وإذا فاتتك طائرة الأحد ضاع عليك أسبـوع كـامل فى أمريكـا لأنك حين تصل أمـريكـا الجمعـة فى الرابعـة والنصف مثـلاً تكون عطلـة الأسبوع قد بـدأت هناك. ومصر للطيران تـدخل أمريكا من بـاب نيويورك وهو أصعب أبواب الجنة الأمـريكية. يكفيك منه أن تقف فى طـابـور لا يكف عن الانثنـاء والانحناء يمينـاً وشمالاً بين مسـارات حددوهـا بحيث يقف فيـه ألفان أو يزيـد من البشر. تتعجب للرقـم« ألفان فى طابـور » نعم. هذان الألفـان هم ركاب أربع طـائرات فقط. تسألنى ومن أين تأتى الطـائرات الأربع فأذكـرك ياسيـدى أن هـذا المطار يستقبل طـائرة كل دقيقـة. لا تتعجب ياسيـدى من هـذا واستمـر معنا فى رحلـة مصر للطيران. النتيجة بالطبع أنك لن تستطيع أن تصل من طائرة مصر للطيران إلى أى مطار أمريكى آخـر إلا بعد وقت وعنـاء. وبالتالى فإنهم فى مصر للطيران يحتـاطون ويحجـزون لك موعـداً على الطائرة التى تتحـرك من نيويـورك بعد وصـول طائرتهم بست سـاعات على الأقل!! . فإذا خطر ببالك وأنت فى القاهرة أن تطلب إليهم أن يضعوك على طائرة أسبق موعداً أخلصوا لك النصح بعدم التعجل فى مثل هذه المواقف لأنهم لا يضمنـون الظروف. مع هذا كلـه لست (مع أنى أنا العجول الذى تمثله عجلته عيباً بارزاً فى شخصيته الحافلة بالعيوب الأخرى) بـالذى يتقبل مثل هـذه الخطوات البطيئـة .. وماذا يبقينى أنـا فى هذا المطـار الكئيب الذى هو فى الحقيقة بمثابة مجموعة من الدول (لا دولة واحدة) .. وأنا لا أبالـغ فى هـذا الوصـف. فلكل شركـة من الشركات فى هـذا المطار شبـه مطار مستقل، ولكى تتحرك من مطـار إلى مطار هنـاك أتوبيسـات لـذلك ومسـارات.

وإذا كنت قادمــاً من مدينة نيويــورك أو خارجها بالسيــارة إلى المطار ودخلت بسيارتك فى مســار خاطىء فإنك لكى تعود إلى المســار الصحيح تقضى وقتا طويلاً يكــون كفيلاً بضياع موعد طائرتك عليك.. والعــودة فى اليوم الثانى كى تستقل طائرة الغد.. (وفى حالة مصر للطيران العودة بعد خمسة أيام) .. ها هى طــائرة مصر للطيران تقــوم من بــاريس متــأخـرة .. إذن سنصل نيــويــورك متأخرين ولكن قائدها العظيم يصل فى موعده !! أطلب استثنائى من الطابور لأنى أريد اللحاق بطائرة أخرى أزف موعدها ... وهاهم يجيبونى إلى طلبى بعد أخذ ورد.. وهأنــذا أمام كتب شركA PANAM فى صالــة الوصول لا أحــد فيه، ولاأحد يرد على التليفون المخصص للاستعــلامات .. وهـأنذا أمام مكتب مصر للطيران، ولا أحد يستجيب من مكتب PANAM ... والحل الذى تسوله لى خبرتى فى السفر أن انطلق بحقائبى من دون أن أسلمها على السير Check in وأن أكون جاهزاً تماماً لصعود طائرة بدون أن أسلم حقائبى مقدماً، وأن أتعهد بأخذها فى طارة PANAM وأن يتقبلوا هم هــذا الوضع لأنها بحجمهــا الذى دبـرته لن تــزعج متن الطائرة . كل مــا يتطلبه هــذا الحل هو عشر دقــائق من الجرى أو السير السريع (حتى أصل من الــدوليــة مطــار الشركــات الــدولــة الصغيرة المشتركة فى مطار أليطــاليا إلى المطار الأفخم للشركــة الأمريكية PANAM) فى صقيع نيــويورك وعــواصفها وأمطــارها لا بأس من ذلك، وأن أكــون حامــلاً حقائبى ولا بأس أيضاً .. مادام ذلك يوفر لى ست ساعات من الانتظار الممل فى مطار نيويورك الدولى J.K. Kenndy ولا تقل عنه غير جى أف كيــه .. ويوفر لى أيضا راحة بعد هذه الساعات بأن آوى إلى فراش بدلاً من العذاب المتصل بعد رحلة طيران جاءت بعد ليلة لم أر النوم فيها فى القاهرة إلا متأخراً جداً .

خطر ببالى أنه أحيانا يكــون من حظ الاشخاص الذين ترغب شعوبهم أو دولهم فى تخليــدهم أن تطلق أسماءهم على مؤســســات يكثــر ترداد اسمائهــا

فيكونون محظـوظين بكثرة الترداد وأحيانا أخـرى لايكون من حظ هؤلاء أن تطلق أسماؤهم على منشـآت يكثر تـرداد اسمائها مع شيء من اللعنـة والملل والضيق كما هو الحال مع كل زائر لأمريكا لا بد أن يلعن كنيدى إذا مرَّ بمطار كنيدى وأن يكفر مـن سيئات الدون جوان. أو مع زائر القـاهرة حين تضطره الظـروف إلى طريـق صلاح سـالم حين تصيبـه لعنه الازدحـام والتـوقف.. ماعلينا!! . هأنذا أصل إلى مطار « بان ام » وأنجح بمـزيد من التوفيق فى إقناع السيدة المسئولة عن الترتيب فى وضعى على الطائرة المزدحمة، فيما بعد وجدت أن الطائرة حين أقلعـت لم يكن فيها مكان واحـد خال... ربما تعـاطفت معى هذه السيـدة لان اسمها كـان مدام محمـد... زوجها محمد وكفـى ... هل هو مصرى أو أمريكى أو أفريقى أو عربى لا أعلم، هل أسلم أو ولد مسلماً لا أعلم. كل ما أعلمه هو أن اسمها الأخير على البادج محمدا! .

لا بد من هـذا التليفون لا تصل بكليفـلاند ليرسلوا السـائق لاستقبالى فى المطار فى موعـد وصول الطائرة .. ولكى تستعمل التليفون لا بـد من العملات المعدنية. ولا بد من أجل الحصول على العملات المعدنية من ترك حقائبك جانباً والذهاب للحصول على العملات الأجنبيـة من الكاشير المخصص لذلك فى هذا المطار ...... وفقنى الله وأدركت الموظفين فى كليفيلانـد قبل أن يتركوا مكاتبهم ويغـادروها... ووعـدونى من كليفيـلانـد بإرسال السـائق!! . ينتـابنى الآن الغرور لنجـاحى فى كل هذه الخطـوات، بل وأمامى بعـد هذا كلـه فسحة من القوت حتى تقلع طائرتى إلى كليفيـلاند استطيع أن أبدأ الآن الحوار الأمريكى حول كل ما يهمنى الحوار عنه.

.................وتصل الطائرة إلى كليفيـلاند وأجد الليمـوزين فى انتظارى على نحو مـا حدثتك فى مقدمـة هذا الكتـاب ، والسائق يقول لى إننـا سنذهب للفندق حيث أقضى هذه الليلة وفى الصباح أذهب المنزل المفترض أننى سأقيم

فيه . لم أسأل السائق بالطبع لماذا؟ فالمنطق يقول إنه لا بد أن هناك شيئاً فى الأمر وأنهم قد رتبوا الأمور على هذا النحو، مادام السائق قد جاء فى الموعد المحدد . ذهبنا الفندق وتركنى السائق.، أنا الآن أمام موظف الإستقبال يبحث عن الحجز الذى باسمى فلا يجد، وقبل أن أطلب إليه أن يعاود البحث كان السائق نفسه واقفاً أمامى مرة أخرى يعتذر لانه عندما أعطى لهم التمام باللاسلكى ، قالوا له إن الطلب الموجود عندهم أن يوصلنى إلى بيت الضيافة وليس إلى الفندق. ورغم أن المسافة بين الاثنين حوالى ٢٠٠ متراً إلا أن السائق عاد وحمل حقائبى وتحرك بى وباالليموزين حيث وجدت الحجز الخاص بى بالفعل.

انصرفت إلى سريرى فى حوالى الساعة التاسعة بعد وجبة خفيفة فى ربع ساعة، وحمام دافىء فى ربع ساعة أخرى ، وخمس دقائق أمام التليفزيون ، وخمس دقائق أخرى فى فتح الحقائب وترتيب ما قد احتاجه من حاجياتى. وفى الثانية عشرة تماما وقبل أن تنقضى ثلاث ساعات على نومى كنت استيقظ بسبب الساعة البيولوجية التى فى أجسامنا .. هذه الساعة التى لاتعرف فروق التوقيت ولا يمكن تحريك عقاربها بهذه السهولة التى ضبطنا بها ساعتنا حين وصلنا مطار باريس أو مطار نيويورك، فهذا الجسد يستيقظ فى القاهرة ما بين السادسة والسابعة ولا يتأخر عن السابعة مهما كان منهكاً.. فلا بد أن يستيقظ فى نيويورك فى الثانية عشرة التى تناظر السابعة فى القاهرة.. مهما كان منهمكا.. فليستيقظ ثم لينم بعد ذلك لا بأس ، ولكن لا بد له من أن يستيقظ !!. وجبة خفيفة أخرى ومحاولة للحديث إلى القاهرة بالتليفون ثم ذهاب فى النوم العميق. فى الرابعة صباحاً استيقظت مرة أخرى وبذلت محاولات للنوم حتى السابعة بلا جدوى ولم يكن بد من أن استيقظ وافتح الستائر ، ومنذ أن دقت الساعة الثامنة صباحاً وأنا أحاول الاتصال بالعائلة الأمريكية حتى اتفق معها على الموعد الذى يمكننى فيه أن أحظى باستقبالها لى

.. وفى كل حين تجىء سماعة التليفون بصوت مسجل يقـول إن هذا الرقم قد قطعت عنه الحرارة ، نفس الرد الذى سمعتـه منذ كنت فى نيويورك.. حتى إذا كانت الساعة العـاشرة تماماً كانت العائلة هى التى تحادثنى تليفـونياً، سائلة عما إذا كنت قد استيقظـت.. إذن فها هى العائلـة لا تزال فى كليفـلاند. بعـدما كنت قد بدأت مـع زميلى المقيم فى كليفيلاند الدكتور حسـام الشرقاوى البحث عن مكان بديل أقيم فيه.

نعم أنا الذى فى انتظـارك وأنا الذى عانيت من البحـث .. لا علينا .. وماذا عن تليفونكـم .. قالت العائلـة إنها تستعمل شريط الإجابـة الأوتومـاتيكية .. انتابنى العجب ، هل يضـع إنسان فى شريط الإجابة عبـارة تقول إن تليفونه قد فقد الاتصـال .. ولكن ليس من حقـى أن أتعجب مبكراً من مثل هذا التصرف ، فأنـا مـازلت رغم كل شىء ضيفـاً أجنبيـاً ... دعينى أعـرف متى يمكننى أن أحضر إليكم بالضبط وأتصل بكم ثانيةً .. ها أنـا قد حددت مع حسام موعداً وأعاود الاتصـال بالعائلـة فإذا نفس الإجابـة فى التليفون مرة واثنين وثـلاثاً وأربعـاً .. فلنصبر وسوف تتحـدث .. حتى إذا كانت السـاعة الحاديـة عشرة تحدثت ربة العائلة .. يا سيدتى تليفونك لايزال معطلاً .. طلبتك أكثر من أربع مرات .. لا عليك ممـا مضى ولكن اطلبى مصلحة التليفونـات .. طيب حاضر ! أرجوك ! حـاول أن تطلبنى مرة ثـانية مـا إن ننتهى من مكالمتنـا هذه .. لاأمل أيضـاً .. فى الثـانية عشرة خطـر فى بـالى أن أطـالع اسم هذه العـائلـة فى دفتر التليفونـات الخاص بكليفيلانـد ووجدت أن هنـاك صفحة كـاملة من الـذين يحملون لقب هـذه العائلة .. أمـا اسم هذه العائلة فهـو موجود فعـلاً وبذات العنوان ولكن رقم التليفون مختلف .. هنـا سر المأساة إنه ليس مختلف تماماً كما يتوقـع القارىء من اقتران كلمة تمامـاً بكلمة مختلف فى حـديث المصريين عما يتعجبون منـه حين يقولـون مختلف تماماً أو مختلف خـالص خالص ..

إنما كـان الاختـلاف فى رقم واحد .. يـاللـه .. فى ذات اللحظـة كانت العـائلـة الأمريكية تتصل .. انتظرت فقد تعلن بنفسها عن اكتشاف الخطأ لأنها بالطبع لن تسكت فى السـاعة الماضيـة عن بحث هذه المشكلـة .. ولعلها طلبت بل لقـد طلبت مصلحة التليفـونات بالفعـل وأجروا لها اختباراً وكلمـوها من السنترال ولم يعد هنـاك من احتمال للبس إلا أن يكون الـرقم المطلوب (أى الـذى معى) خطأ .. وهكذا طلبوا أن أقرأ الرقم المرسل بـالتلكس .. وبدأنا مرحلة من التفهم الصحيح .. وحين راجعت الخطابـات الأولى التى فيها عنوان العـائلة اكتشفت أنها تضم الـرقم الصحيح ، وصبـاح الإثنين حين كان علىّ أن أبـدأ عملى كنت أعود من حين لآخر إلى القول المنسوب فيما أظنـه للإمام الشافعى عليه رحمة الله .

« إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده »

وحين جاءنى د. حسـام الشرقاوى ود. عمر مسعود آثـرت أن نبدأ بقراءة الخرائط وكانت مفاجأة .. لو اتبعنا الخرائط فسـوف نمضى فى الطريق قرابة أربعين ميلاً إلى طريق آخر يحمل نفس الاسـم . ولكن بما أننا جميعاً متأكدون من أن منزل العائلـة يقع فى مرتفعات كليفيلاند فلابـد من أن نبتعد عن عنوان الخريطـة .. وها نحن نعـود للفندق فنسأل العـائلة بـالتليفون . وتبسـط لنـا العائلة وصف منزلها فعلى بركة الله.

كانت ربة العائلة تقف خلـف زجاج منزلها وتشير بأصبعها تصحح لنا .. إن طريق الدخول إليها بالسيارة (Drive) إلى الشمال وليس إلى اليمين .. هكـذا حتى تكون قبـالة الباب بالضبط .. من حسن الحظ أن حسـام وعمر يفهمان تماماً تقاليد الأسر الأمريكيـة ، وهكذا انتظرا فى الخارج ولم يساعدانى فى حمل

الحقائب ودخـول المنزل بها .. ربة البيت تقـودنى إلى حـجرة نـومى فى الدور العلوى وتعطينى فكرة سريعة عن حجرة التليفزيون والاسترخاء الخاصة بى فى البدروم وإلى جوارها حجـرة المغسلة .. والمطبخ فى الطابق الأرضـى (الأول) ومع هذا أجـدنى .. أسرع فى الاستئذان حتى لا أؤخـر حسام وعمـر على وعد بالاجتماع معها عنـد عودتى فى المسـاء أو فى صباح اليـوم التالى للاستماع إلى التعليمات الكاملة .

(٢)

وحين عدت فى حـوالى الثامنة مسـاء كان النور مضـاءاً فى الطابق الأول .. ولكن العائلة غير مـوجودة .. لعلها تركت النور مضـاءا ليؤنسنى حين اقدم . لابد أنهم نيـام الآن فى الطابق العلـوى .. أخذت أتحسس خطـواتى إلى الطابق العلوى وأنـا حريص كل الحرص على ألا آتى بأيـة حركـة .. إلى اليمين حجرة بابها مفتـوح ثم حجرتى ثم الحمام وإلى اليسـار باب مغلق ثم حجـرة بابها مفتوح .. لابـد أنهم نيام وراء هذا البـاب المغلق . أغلقت باب حجـرتى وأخذت أرتب متـاعى ... ثم نـزلت إلى الطـابق الأرضى وأخـذت أرتب الأطعمـة التى اشتريتهـا من السوبـر مـاركت فى ذلك الرف الـذى أخبرتنى ربـة العائلـة فى الصباح أنه مخصـص لى فى الثلاجة ، وفى ذلك الرف المنـاظر فى دولاب الطعام وفى ذلك الجزء الأيسر من الفريـزر . كان الفـريزر ممتلئاً تمامـاً رغم سعته .. ومع هذا وجدت مساحة كانت كافيـة بالكاد للكبد واللحوم والسمك والدواجن التى أحضرتها اليوم .

انتويت الصيام لأول يوم فى رمضـان وللشهر كله وأويت إلى فراشى . وفى حـوالى الثـانيـة عشرة استيقظ جسـدى لأنـه تعـود على ذلك بفعل السـاعـة

البيولوجية كما أخبرتك وليس هناك من أمل فى أن يعدل عما اعتاد عليه بين يوم وليلة ، فى الخامسة والنصف استيقظت لأداء صلاة الفجر وظللت فى حجرتى حتى التاسعة ، فى التاسعة تماماً كنت فى الطابق الأرضى حيث وجدت ربة العائلة لاتزال فى المطبخ تتناول قهوة الصباح ، وبدأنا الاجتماع، هذه ورقة طويلة بالتعليمات وناقشناها معاً .. لن أذكر لك تفاصيل كثيرة .. ولكنى سأدلك على بعض ما يهمك من أمر الحياة الأمريكية اليوم ، وقد تكون عندك فكرة أسبق منى ، ولكنى سأحدثك بانطباعاتى حتى لو اتهمتنى بالتخلف .

يبدو أنه لم يعد لجهاز البوتوجاز مكان فى المطبخ الأمريكى .. فالاعتماد اليوم على جهاز الميكروويف .. وعند هذه العائلة جهاز جديد .. ولكن كيف يمكن لى أن أعتمد عليه فى إعداد شرائح الكبدة المحمرة .. التى تحتاج زيتاً مقلياً؟ ربة البيت تتناول المرجع المناسب الموجود فى مكتبة المطبخ .. وفى المرجع المذكور أننى فيما يختص بالكبد بحاجة إلى تشغيل الميكروويف لمدة دقيقة ثم إلى أن أترك الطعام فى الميكروويف ١٥ دقيقة أخرى .. بينى وبينك لم اقتنع تماماً . ونويت أن ألجأ إلى الوسيلة القديمة إلى موقد الغاز الكهربائى .. هل انتابتنى الشيخوخة أنا الذى لم يترك جديداً إلا جربه .. لا يا سيدى اليوم أول يوم فى الصيام وليس عندى فرصة أخرى لطعام آخر .

ولكن الأمر حُسم بطريقة أخرى فحين أقبل المغرب كانت ربة البيت على رأس مائدة الطعام بالقرب من المطبخ ومعها ثلاث من صديقاتها وأصبح من الصعب علىّ أن أتقبل أن أزكم أنوف هؤلاء جميعاً ببخار الزيت المقلى .. حتى مع وجود هذا الشفاط الذى اتفقت منذ الصباح على تشغيله بمجرد البدء فى استعمال موقد الغاز .

لن أقول لك إن الكبدة بالميكروويف كانت أحلى كبدة فى حياتى ولكنها

كانت بـلاشـك قريبة من هذا المعنى . إذا كـان لك أن تسـألنى عما فعلت فى هذه الكبـدة قبل أن تدخل إلى الميكـروويف فإننى ألخص لك القـول بأنها غمست تماماً فى الفلفـل .. وأحيطت بزيت المازولا الشـهير .. وبـدعاء الصـائم المضطر المغترب !!.

عودة إلى أول صباح لى فى المنـزل : فى الضحى فقط وحين انتهت ربة البيت من اجتماعهـا تركتنى لتعـود بعد حوالى نصـف ساعة فى مـلابس الخروج.. ساعتهـا فقط أدركت أن حجرة نـومها هنـا فى الطابق الأول .. أمـا ذلك الباب المغلق فلم يكن وراءه [طبقاً لما فهمت بعد ذلك من ورقة التعليمات] إلا المكنسة الكهربائية .. وأدوات التنظيف .

للعائلة ابن هـو ريتشارد وابنة هى كريستين . الولـد هو الأصغر ويعمل معمليـاً فى إحدى مستشـفيـات سلاح الجو الأمـريكى . والإبنة كـريستين ٢٦ عـاماً متـزوجـة وتعيش فى كولـومبـوس أما ربـة البيت نفسـهـا فإخصائيـة اجتماعية . تعمل فى إحـدى جمعيات مرضـى السرطـان فى الجانب الغربى من المدينة .

(٣)

دعنى أحدثك بعد ذلك عن روتين الحياة اليومى فى بيت العائلة الأمريكية . بـالنسبة لى كـانت هذه السكنـى النموذج الأمثل لما أريـد ، لن يضيع وقتى فى حكـايات عن الـوطن البعيد مع زميل مصرى ـــ سأعيش الثقافـة الأمريكيـة بمعنى الثقافة الواسـع كأسلوب حيـاة وهو ما لا يتاح للمرء إلا إذا عاش معهم فى بيوتهم وخارج بيوتهم لا فى مجرد العمل وساعاتـه فحسب ـ بالإضافة إلى هـذا هنـاك فاصـل واضح بين حجرة النـوم وبين حجـرات الطعـام والمطبخ

والمعيشة ـ على حين أن شقق الحجـرة الواحدة (الاستوديـو) تكدس كل هذا وتكرسه فى مساحة محدودة قد تكون واسعة ولكنها موحدة على كل حال .

فى حجـرتى كرسى مـريح ومكتب أكثـر راحة ، ودولاب حـائط ، ودولاب آخر، ومنضدة إلى جانب السرير ومكتبة فى الحائط ـــ كل ما ابتغيه تقريباً . كل صباح هناك جريدة وقد تعـودت أن أقرأ صحيفة الصباح حتى فى البلاد التى لا أعرف لغتها جيداً ، واعتقد أن مجرد تصفح صحف الصباح لا يحتاج معرفة اللغة . هناك مطبخ حقيقى وليس مطبخاً يتكون على عجل وفى حالة طوارىء .. صحيح أننى لست مـداومـاً على الطبخ المستفيض إنما هى وجبـات عـاجلـة تعودت عليها منذ بدأت اغترابى منذ أكثر من ١٧ عاماً ولكن لابد من مطبخ من أجل إذا قدر .. أو كما يقول الأمريكان In Case ، يقصدون من بـاب الاحتياط . هناك أدوات للنظـافة على حين أنك فى الشقـة الصغيرة ستجد نفسـك مضطراً لتنفيذ كل عمليات النظافة بأداة واحـدة .. أى أداة تقع فى يدك قبل غيرها ـ فلا مانع من أن تكنس بالمساحة أو تمسح بالمقشة .. إلخ). هناك الشعور بالوجود فى بيت وبـالانتماء إلى أسرة .. هنـاك من تفكر فى أنـه سيسألك إذا تأخـرت فى المســاء عن عودتك ـــ هـذا الشعور يـريح الـذين نشأوا على نشأة تجمع بين الفطرة السليمة والحرية الحقيقية . هناك الشعور بالانتماء إلى مجتمع بكل ما يحمله موقع البيت والمنطقة السكنية التى هـو فيها من معان .. هناك بعد ذلك كل الخبرة بتأثيث البيـوت وتـرتيبها والإفـادة من أركـانها وتوظيف المبـانى للمعـانى والمساحـات للأغـراض ولمسات الفن الجميل سـواء فى التشكيل أو التكوين أو الـزخرفة أو الزهـور أو الأثاث أو الألوان أو الترتيب .. فى الســابعة وعشر دقائق تفتح ربة البيت باب جـراج السيارة بالريموت كنترول بينما هى لاتزال فى المنـزل ثم تنزل إلى سيـارتها فتبدأ فى إدارة محركها وتتركهـا وتعود لتستأنف تـرتيب مـا تأخذ مـن متاع معهـا وقبل الســابعة والـربع تتحـرك

بالسيـارة إلى الخلف ريثما أغلق أبواب المنزل بمفـاتيحى وأستقل السيارة فى الكرسى الأمـامى بينما الصديق والزميل البـولندى الذى يسكن عند العـائلة المجاورة قد سبقنى إلى الكرسى الخلفى أو يلحقنى فيه .

فى السابعة و٢٢ دقيقة أكـون فى المستشفى وتستأنف ربة البيت طريقها إلى عملها ـــ حوالى ٤٥ دقيقة . وتبقى هنـاك حتى الخامسة مثـلاً ، وتعرج فى طريق عودتها على من تريد من أصدقـاء أو مصـالح . أما عطلة نهاية الأسبوع عندها فهى كذلك حافلة بـالعمل والنشاط . فى نهاية أسبوعى الأول كانت على موعـد مع والدتها .. على بعـد ١٥٠ ميل من كليفيلانـد .. ولهذا سافـرت منذ الخميس ، غابت الجمعة والسبت ـ وجاءت فى مساء الأحد .. كان هذا الأسبوع يناظـر عندنا عيد الأم فى مصر ولكنـه لم يكن كذلك فى أمريكـا ومع ذلك كانت هذه السيدة عنـد والدتها محملة بكثير من الهدايا !!. فى نهايـة أسبوعى الثانى كان عيد الفصح يـوم الأحد .. وكان عيد ميلاد أقرب صـديقاتها إلى قلبها يوم السبت . فى نهاية الأسبوع الثالث كان عليهـا أن تسافر إلى بيتها الريفى حيث دعت أخيها وخطيبتـه لقضاء عطلـة نهاية الأسبـوع هناك حين قـابلتهم عند والدتها قبلها بأسبوعين .. سافرت ربة البيت صباح الجمعة ولكنها كانت منذ ظهر الخميـس مشغولـة باستقبال ثـلاثة ضيـوف هم ابنتهـا وزوج ابنتها ووالده الذين خرجوا فى سيارتين من كولومبوس فى وداع الأب المسافر إلى كندا عبر كليفيلاند .

وليس هذا هو كل السفر فى حياة ربة البيت التى قاربت الستين . ففى أحد أيام الخميس كـانت مسافرة إلى تـوليدو ، لتحضر نـدوة موضوعهـا « النكتة كجزء من العلاج » ، لك أن تعجب من أن تسافر هـذه السيدة كل هذه المسافة لتحضر مثل هذه الندوة حتى ان احترمت مـوضوعها باعتباره موضـوعاً هاماً حتى وإن بدا من اسمــه أنه موضوع كـاريكاتير عن ندوة لا موضـوع ندوة .

ولكن عجبك يزول إذا علمت أنه لابـد لهذه السيدة شأنها شأن كل الأمريكيين الذين يمارسون مهناً من أن تنتظم فى برامج ما يسمى [التعليم المستمر] حتى تكون قادرة على أن تستمر فى أداء مهنتها والبقاء فى وظيفتها .

وعلى كل الـذين يمارسون المهن المختلفـة فى الولايـات المتحدة أن يبحثـوا بأنفسهم عن النـدوات وأن يحضروهـا وأن يسـجلـوا حضـورهم بشـهـادات تتضمن هذه الشهـادات قيمة هذه الندوة من حيث السـاعات المعتمدة حسبما تقدر الهيئة المشرفة على ممـارسة المهنة . فإذا كانت هذه السيـدة مثلا مطالبة بخمسين ساعة فى العام من التعليـم المستمر فإنها لابد أن تحضر عشر ندوات من مثل هـذه النـدوات التى قدرت لها نقـابـة الاجتماعيين [مثلاً] أو اللجنـة الدائمة للوظائف الخاصة بـالخدمة الاجتماعية [مثلاً] أو جمعية الاجتماعيين [مثلا] خمس سـاعات فى مقيـاس ساعـات التعليم المستمر حتى وإن كـانت الندوة تستمر لمدة ١٢ ساعة ما بين مناقشات ومحاضرات واجتماعات ... إلخ. هذا هو تعليـم الكبار أو التعليم المستمر .. وفيما مضى ومنذ حـوالى ١٢ عاماً بدأنـا فى مصر برنـامجاً للتعليم الطبى المستمر ثم أجهضنـاه شأن كل أجنتنا التى نجهضهـا دون أن نستشعر حـرمـة قتل مـا من شأنـه أن يكون زادنـا وثروتنا فى تطلعاتنا نحو المستقبل .

(٤)

جانب آخر من حيـاة ربة البيت الأمريكية أريـد أن أحدثك عنه بشـىء من التفصيل وهـو اهتمامها بـالثقـافة والكتب ، ففى الحجـرة الـرئيسية مكتبـة صغيرة ، وفى دولاب حجرتى مكتبة أصغر ، وفى الحجرة المجاورة مكتبة أصغر وأصغر ، وفى الطـرقة التى أمامهـا مكتبة صغيرة أيضاً ، وفى الحجرة الـرابعة مكتبـة أكبر من الصغيرة . وفى المطبـخ مكتبـة مطبخ صغيرة ، وفى حجـرة

الاستقبال شبه مكتبة أيضاً ، أكون مبالغاً إذا أهملت الجانب الآخر من الموضوع ولم أحدثك عن أن المكتبة من هاتيك الصغيرات لا تضم أكثر من عشرين كتاباً ، وأن مكتبات الدور العلوى كلها فيما يبدو حصيلة الاهتمام المفرط للابن بالسيارات ـ فعنده موسوعة السيارات عاماً بعد عام ـ وكتاب عن سيارات العالم ، وآخر عن سيارات أمريكا وأعداد من مجلة Hot rod وهى مجلة للدعاية للسيارات تضم أو تتعاقد مع ست من الحسناوات ، والمجلة تصور كل سيارة وعليها أو فيها أو على طرفها أو بجوارها فتاة عارية إلا قليلاً .. هل يا ترى يعجب القارئ بالسيارة من أجل السيارة أم من أجل الفتاة التى معها ؟ لست أدرى .

أما مجموعة كتب المطبخ التى عند ربة البيت الأمريكى فشبيهة بمجموعة كتب الطب عند الأطباء المصريين الشبان ، تجدهم رغم كثرتها يحتفظون بورق صغير يصورونه من هنا وهناك ويعتمدون عليه فى بعض عملهم . هذا هو ما حدث حين جاءت ربة البيت باعتزاز شديد بثلاث ورقات مصورة من مرجع ليس عندها منه نسخة وشرعت فى عمل (كيك القهوة)!!. أما كتب ربة البيت نفسها تلك التى تستحضرها من حجرة نومها فتحدثك عن ثقافتها الحقيقية ـــ فعند ربة البيت أكثر من موسوعة تلجأ إليها فى الحصول على المعلومة التى نختلف حولها ، أو تحتاج إليها . وعندها مجلدات قيمة لأعمال أدبية من التراث العالمى ، ربما تحتفظ بها كما تحتفظ أمريكا ببعض هذه الأشياء فى متاحفها القومية !. وعندها المجموعة الكاملة للمجلة العلمية للإخصائيين الاجتماعيين . وعندها أيضاً مجموعة متفرقة من الكتب فى الفن والتاريخ والآثار وعندها كتابان فى الموسيقى .

أنا لست مبهوراً بمكتبة ربة البيت الأمريكية ـ ولست فى نفس الوقت مستخفاً بها إذا قارنتها بأى من مكتباتى ولكنى أريد أن أحدثك عن أن الأمور

لا تقدر إلا فى إطـارها الصحيح . فإن الأمـريكيات المتعلمات التى فى سـن هذه السيدة قليلات إذا ما قورن بالأوروبيات من جيلهن أو حتى بالأمريكيات من الجيل الذى بعدهن. ولابد أن تعرف أن فى أمريكا أمية ولابد أن أحدثك أن علاج الأمية فى أمريكا هو رابع المستحيلات لا أحـدثك بذلك رثاء للأمريكيين ، ولكن لأذكرك أننـا فى مصر والبلاد العـربية على وشك الـدخول فى ذات المرحلـة من استعصاء الأمية على الحل .. تسالنى لماذا ؟.

أظنك لست بحاجة إلى السؤال فهذا التليفـزيون بقنواته الأربعين والفيديو من خلفـه ـ ثم هـذا التليفون ومـن خلفه دائرة المعـارف التليفونيـة المجانيـة كفيـلان بأن يتيحا لـلأمي كل ما كـان يستشعـره من نقص يدفعـه إلى تعلم القراءة والكتابة، ليقرأ كتاباً أو صحيفـة مثلاً أو فاتورة أو إيصـالاً أو عقداً ، أو ليكتب خطـاباً إلى إبنـه المقيم على بعـد ، أو طلبـاً للحكومـة المحليـة !! ها هـو التليفون وها هو التليفزيـون يشبعان فى البشر الحاجة إلى المعرفة من دون أن يمتلك المرء القـراءة التى كـانت أداة البحث عن المعرفـة .. أعـرف أننى أسطح الأمور وأننى اتجاوز حدودى حين اتناول المعـرفة مثل هذا التناول السطحى، وحين اختزل الحاجة إلى المعرفة إلى هذه الأمثلة البسيطة .. ولكن الحقيقة التى لا شك أنها تصـدمنا جميعـاً هى أن هذه المعـرفـة التى تراهـا أنت وأراها أنـا سطحيـة هى كل مـا يهم الأمى وأكثـر ممـا يهم الأمى. وإذا شبع الأمى بهذا وتوقف عند هذا فلن يشكو لك ظمأ ولا جوعاً .

أليس فى وسع الأمـريكى الأمى أن يتحصل اليـوم من بين أفـلام القنـوات المتعاقبة فى التليفزيون الأمريكى على مشاهدة خمسة أو ستة أفلام كاملة.. هل كان فى وسـع المثقف فى القرن التاسـع عشر أن يقـرأ روايات هذه الأفلام جميعاً فى شهر واحـد!! أليست ساعـات معدودة أمام التليفـزيون كفيلـة بأن يطالـع الأمـريكى ما ينـاظر ست صحف أمـريكية يـومية مختلفـة الألوان والاقـلام والاتجاهات؟ .

نعم يـاسيدى تبقى أنت وأبقى أنـا ويبقى كثيرون معنا لا يستغنـون عن قراءة الصحف ولا عن مطالعة الـروايات ولكنى أحدثك عن السواد الأعظم ق عصر أصبحت الثقافـة فيه متأثرة إلى حد بعيـد بفلسفة الـ Mass ولكن إذا لم تكن تأملت المعنى الحرفى ق اللغـة الانجليـزية فـاعلم أنها لا تعنى إلا وسيلـة الاتصال بالسواد الأعظم أو بالكتلة الكبيرة.

(٥)

هل أحدثك بعد هذا كله عن المنزل الأمريكى من مطبخه ربما كان من حقك علىّ ومن حق المنـزل الأمريكى علىّ كذلك أن أتحدث عنـه بشىء من التفصيل هو الآخر . فهذا هو مطبخ العائلـة لا يكاد يتسع للدواليب التى فيه، ودواليبها لا تكاد تتسع للأرفف، والأرفف لا تكاد تتسع لما عليها.. من كل حجم الأطباق أكثر من ٥٠ ... وهناك أكثر من ٥٠ ملعقة وأكثر من ٥٠ شوكة وأكثر من ٥٠ سكينـة ... عن المقـالى حدث ولا حـرج ... أدوات الميكـروويف ، أوانى لفـرن البوتاجاز .. أوانى للموائد الفخمة .. أوانى للموائد المتواضعة .. علب من جميع المقاسات للثلاجة وللميكـروويف .. علب أخرى للبهارات .. علب لوازم الآيس كـريم .. علب لـوازم الكيك.. علب لـوازم المائدة والسرفيس .. أدوات كبيرة وصغيرة .. أدوات للخلاطـات .. والماكينات المختلفـة.. أوراق مفضضة لحفظ الأطعمة المطهية وأخـرى سلوفانية وأخرى ورقيـة . مساحيق الغسيل تفوق العشرة.. أطقم التـوزيع لا حصر لها.. الفناجين يتعـدى عـددها يتعـدى المائة وكذلك الكئوس ولكلٍ استعماله، هذا للمشروبات .. هذا للشـاى .. هذا للقهوة .. إلخ.القهـوة نفسهـا أنـواع .. المحمصـة أنـواع كثيرة، بعضهـا يحفظ ق علب بلاستيكية، وبعضهـا ق أكياس ورقية، وبعضها ق علب معـدنية ، و بعضها جاهز مبـاشرة لماكينة القهوة... أوان متنوعـة للعصائر المختلفة، وأقول لـربة البيت إن عندهـا أشياء كثيرة جداً جـداً لاشياء كثيرة جداً جـداً .. فتسعد بهذا

التعليق ولكنهـا تردف بالقـول بأنها مسألة عمـر فمع مرور الـزمن يضيف الانسان إلى ما عنده .

كان على فى هذا المنزل أن استوعب تشغيل أكثر من عشر آلات :

١ ـ الغسالة الكهربائيـة ونظامها مختلف تماماً عن غسالتى وكلما أحكى عن وجوه الاختـلاف تعجب ربة البيت لهذا التقدم الاليكترونى الـذى أصاب الغسالات!!

٢ ـــ المجفف وربما كان أمـره أسهل الأمـور لأنك تضبط سـاعته وتنظـر فى النهـاية هل جففت أم لا ؟والحقيقـة أنـه لايجفف فحسب وإنما يحمص الملابس.

٣ ـ البـوتاجـاز الكهربى وربـة البيت حريصة أن تجعلنـى استعمل الشعلة المنـاسبة لما أعمل بينما أنـا كعادتى استسهل الشعلـة الأماميـة اليسرى لأنها فى متناول يدى عن يمينى، وتعطى مـا أريد، ويمكننى التحكم فيها بـالقليل، ولكن ربة البيـت لا توافق على هـذا المبـدأ لأن نتيجته ستكـون ضارة بحـواف الأوانى الصغيرة التى توضع على هذه الشعلـة فيصيبها اللهب من أطـرافها أو بسطح البـوتاجـاز من حول الشعلـة حين يصيب رذاذ الوقود واجهة البوتاجاز التى عليها عدادات الحرارة!!

٤ ـــ الميكروويف . وقـد سبق لى أن صارحتك باعتقـادى أنه لن يصبح هناك محل للبوتاجاز إذا تطور هذا الميكـرويف فى السنوات القليلة القادمة على أيدى اليابانيين و بأموال الزبائن العرب.

٥ ـ التليفزيون و هو أسوأ الأجهزة لأنك لا بد أن تكبت عليه بنفسك (بلمس الأزرار طبعاً) القناة التى تـريدها قبل أن يبثها لك .. مـا أحلى الريموت الذى نشره اليابانيون فى بلادنا .

٦ ـ الفيديو .. حيث شاهدت بعض برامج جمعية القلب الأمريكية .

٧ ـ المكـواة الكهربـائية سبحان اللـه كنت أظن الماركات التى نعـرفها أرقى الأنواع فكيف نصف هذه التى لا يـزيد وزنها عن الخمسين جراماً التى تسوى الصوف بمجرد لمسة .

٨ ـ ماكينة صناعة القهـوة .. وأمرها سهل .. فهى تقريباً نفس الماكينة التى نعرفها جميعاً .

٩ ـ المكنسة الكهربائية وهـذه فى حد ذاتها تحتاج خبرة طويلة لأنها متعددة الأغراض والاتجاهات والاستعمالات .

١٠ ـ التكييف المركزى وأمره سهل .

١١ ـ غســالة الأطبـاق وأمرهـا سـهل أيضاً لأن كل إنـاء يوضع فى محلـه ثم تدور.

١٢ ـ الراديو بالساعـة والمنبه وسوف أستعمل الراديو فقط . فإذا أضفت إلى كل هذه الأجهـزة خبرة لا بد لك بها مع كل مفاتيح الإضــاءة. ومفاتيح التحكم فى مفـاتيح الإضاءة.. ما هـذا؟ وهذا يضىء مـاذا؟ .. أدركت أن المسـألة ليست بالبسـاطة التى تظنها من التأقلم على بيت جديد.

قبل أن تسافر العائلــة فى أول مرة أوصتنى ربة البيت خيراً بقطتها الأثيرة " باتشى " ولماذا لا تأخـــذيها معك يـــاسيـــدتـــى ؟. الجواب : حتى لا تتعب أعصابها بأماكن لم تتعود عليها ، أو بالركوب فى سيارة قد تهتز فتقلق باتشى النائمة دائماً.. من هذا الدولاب تستطيع أن تـأتى بالطعام إذا نقص طعامها.. وفى هذا الاناء تضع لها الماء.

والمسئولية عن حيوان أعجم أمــانة ثقيلة وكل فترة لا بد أن أذهب لأطمئن إلى أن باتشى لا تزال بخير ولكنى أساءل نفسى ماذا تفعل هذه القطة النائمة؟ لست أدرى. هل تأكل الفئران؟ أعتقد أن أى فأر مهما كان ضئيلاً قادر على أن يأكل هذه القطة وأن ينتهى من مضغ لحمها كله فى خلال أسبوع واحد. وحتى

هذا الفأر المصنوع من الموكيت و البـلاستيك والملقى أمام باتشى على الأرض كفيل بها ، هكذا انتابنى الإحســاس تجاه هذه القطة، وقديما كنــا نعرف خيال المآته على أنه يخيف الطيور .. الآن يبدو أن هناك خيال مآته من نوع آخر كهذا الفأر الخيالى الذى يعطى الثقة للقطة بأنــه لازالت هناك فئران فى الحياة الدنيا. بعد أيام من إقــامتى اكتشفت شيئاً خطيراً حمدت الله عليه .. كانـوا يسألوننا فى مراسلتهم أن نحدد إذا كنا مدخنين أم لا. لأن العائلات التى سنقضى عندها وقتاً ترغب فى تحديـد هذه النقطة منعاً لإزعاج أى من الطـرفين . جارتنا (ف) التى يقيم عند عائلتها زميلى البولندى مدخنة .. لكن المأساة التى رحمنى منها اللــه أن عندهــا ٣ كلاب !! يــاللهول أمــا كــان أولى بهم أن يسألوننــا هل أنتم تطيقون الكلاب أم لا ؟فكـرت فى نفسـى (لو قدر لى بعد هــذا أن أكرر مثل هذه التجربة) أن أكتب فى ورقى أننى غير مــدخن وغير مطيق للتدخين ولا للكلاب وحمدت الله على نعمة الستر. فى صباح اليوم التالى وفى صدفة غريبة كانت ربة البيت تسألنى بينما نحن فى السيارة.. هل يربـون الكلاب عندكم فى البيوت .. نعم ياسيدتى بعض الناس ولكنى لا أحب.. وتستطرد ربة البيت إنما أردت أن أسأل لأنه حــدث ذات مرة أن جاءت طبيبة من الأردن كــان المفروض أن تقيم عند جيراننا فلما وجدت الكلاب اعتذرت عن الإقامة فى مثل هذا البيت.

فيما بينى وبين نفسـى أقـول ولو كنت مكــانها لفعلت هذا أيضـا بـالطبع.. وفيما بينى وبين مضيفتى لا بد من حــديث آخر .. حــديث عن الإنسـان وكيف يخاف من الحيـوان الأليف .. وأنــا أعرف أن حــديثى الجميل يعبر عن خـوف صغير جميل أيضا.

الفصـــل الخـــامس

كليفيلاند كلينك: المكانة والمكان

أحب أن أحـدثك الآن ولبعض الـوقت عن العمل فى مستشفى كليفيـلانـد كلينك الذى قضيت فيه شهرين زائراً لأقسام القلب والأوعيـة الدموية. والذى يعد من أحسن المستشفيات فى الولايـات المتحدة . إذن فمن المنطقى أن أحدثك عن أحسن المستشفيات فى الـولايات المتحدة وأنت تدرك للـوهلة الأولى أن هذا حديث صعب، لأنه يصعب عليك أن تميز بين القمم، ومع هذا لابد من التمييز، دعنى أذكرك بالمائة الأوائل فى الثانوية العامة ـ هل هناك فرق كبير بين الطالب الأول والطـالب المائة؟ ربما ثمانيـة درجات أو ٢٪ فى المتـوسط ولكن لابـد أن يكون هناك أول المائة، ولهذا فإنك أحيـاناً ما تجد الأول فالثـانى فالسابع لأن هناك خمسة يحتلـون المركز الثانى.. كل منهم الثانـى مكرر.. ولهذا يحتلون مراكز الثالث والرابع والخامس والسادس إضافة إلى المركز الثانى نفسه .

إذن هـذا الترتيب هـو بمثابـة البحث عن أحسن الحلـوين .. وإذا كنـا فى حياتنـا كثيراً ما نقنع بأحـد البدائل لا لشـىء إلا لأنـه أحسن الوحشين.. فإن أحسن الحلوين يصبح بالنسبة لنـا مشكلة كبرى. هناك بالطبع معايير كثيرة

لتقييم المستشفيات، ولن تنتهى، هذه المعايير وبالطبع هناك جداول ومقاييس ومعايير موحدة و Scores لهذا فى كتب إدارة المستشفيات وتقييمها، ولكنى مع هذا سأحاول أن ألخص لـك تقريراً عن أحسن مستشفيات أمـريكا لصحيفة أنباء الولايات المتحدة (U.S. News & World Report) العالمى وهى الجريدة التى لا تكاد توازيها عندى إلا الهيرالد تربيون.

كانت فكـرة الصحيفة فى إعداد هذا التقريـر أنها سـألت ٤٠٠ طبيباً فى ١٢ تخصصاً وكانت إجابات الأطباء منصبة على ٥٧ مستشفى. وقد اختارت أكثر هذه المستشفيات تردداً فى اختيارات الأطباء ورتبتها على النحو (الرقم السابق هـو الترتيب للمستشفى يـدل على عـدد التخصصـات التى حظيت بتقـديـر الاخصائيين).

- مستشفى مايو كلينك فى منيسوتا ١١ تخصصاً.
- مستشفى جون هوبكنز فى بالتيمور ١٠ تخصصات.
- مستشفى جامعة دوك - ولاية كارورلينا الشمالية ٩ تخصصات.
- مستشفى مساشوستس - بوسطن ٨ تخصصات.
- المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا لوس أنجلس ٨ تخصصات.
- المركز الطبى لجامعة واشنطن فى و لاية سياتل ٧ تخصصات.
- مستشفى بارنيس - سان لويس ٤ تخصصات.
- مستشفى كليفيلاند كلينك ٤ تخصصات.
- المركز الطبى المشيخى كولومبيا - نيويورك ٤ تخصصات.
- مستشفى جامعة ستانفورد، كالفورنيا ٤ تخصصات.
- المركز الطبى لجامعة كاليفورنيا سان فرانسيسكو ٤ تخصصات.

طبعا من الملاحظ أنهم سألوا ١٢ تخصصاً فقط، ولو سألوا تخصصات أكثر فربما تغيرت النتيجة ـ ولكن هذه الفكرة سريعة وصادقة إلى حد بعيد على كل حال.

هل تحبنى أن أزيدك فى هـذا المجال بعض الشىء فانقل لك قـائمة أحسن الحلوين فى تخصص القلب إذن فهذا هو الترتيب : ـ

- ☐☐مايو كلينك ٧١٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى مساشوستس ٧١٪ من الأصوات .
- ☐☐ كليفيلاند كلينك ٥١٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى جامعة دوك ٤٩٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى برجهام وومن ٤٦٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى جين هوبكنز ٣٧٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى جامعة ستانفورد ٣٧٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى جامعة إيمورى ٣٧٪ من الأصوات .
- ☐☐ مستشفى جامعة ألاباما ٣١٪ من الأصوات .
- ☐☐ المركز الطبى المشيخى ـ كولومبيا بنيويورك ٢٦٪ من الأصوات .
- ☐☐ المركز الطبى لجامعة بنسلفانيا ٢٣٪ من الأصوات .

ها أنت ياسيدى قد أخذت فكرة عن المستشفيات ـ ولعلك ونحن بلد يفرق بين القطاع العام والقطاع الخاص وبين الجامعـة ووزارة الصحة .. إلخ تدرك معى من الأ سماء التى كتبتها كـاملة أن كـلا من مـايـو كلينك وكليفيلانـد مؤسسـات خاصة وليست بمستشفيـات جامعيـة ولا حكومية وأن القـائمة تضم مستشفيات جامعة ومستشفيات عامة كذلك .

وقد ساعد على ذيوع كليفيلاند كلينك والشهرة العالمية التى حظى بها أنه شارك فى صياغـة كثير من الإنجازات الرائعة التى شهـدتها السنوات الأخيرة

فقد شارك فى تطوير جراحات القلب والتصوير الصبغى لشرايين القلب، كما شارك فى تطوير جراحات سرطان الثدى والدرقية والقولون والأمعاء وكذلك فى زراعة الكلى والكلى الصناعية. وبالإضافة إلى هذا ساهم هذا المستشفى فى تحديث وتطوير الأعضاء الصناعية وبخاصة الوسائل المعينة للقلب(I.C.U) وفى زراعة القلب .

أما البحوث التى أجريت على الضغط وعلاقته بتصلب الشرايين فهى نموذج رائع للبحوث العلمية الدموية والمتكاملة والتى درست كثيراً جداً من العوامل والجوانب المتعلقة بالموضوع.. ويكفيك أن تطالع مثلاً قائمة عناوين البحوث التى نشرها اثنان من أساتذتنا المصريين الذين عملا فى هذا المستشفى منذ السبعينات وهما الدكتور روبير طرزى والدكتورة فتنة فؤاد لترى كيف عُنى قسم البحوث فى هذا الصرح الطبى العظيم عناية خاصة بهذا المرض. وفى الطريق إلى المراجع الطبية وإلى استخداماتنا فى كثير من المستشفيات فى جميع أنحاء العالم نتائج التطبيق لأجهزة دراسات التصوير الصبغى للشرايين بالطرح الرقمى (Digital subtraction Angiography وأجهزة الرنين المغناطيسى / magnetic Resonance (MR) التى أصبح لأقسام الأشعة هنا خبرة واسعة بها منذ أتيح لأطباء هذا القسم العمل على الطرازات الأولى من هذه الأجهزة وتسخيرها لخدمة أغراض العلاج والتشخيص.

لا غرابة إذن فى أن يستقبل هذا المستشفى كل عام ٦٣٠ ألف حالة فى العيادات الخارجية وأن يدخل هذا المستشفى للعلاج الداخلى ٣١ ألفاً كل عام. ولا غرابة فى أن تتسع مظلة جنسيات هؤلاء المرضى لتغطى ٧٨ دولة خارج الولايات المتحدة . ومن الطبيعى إذن أن ينتبه الأمريكيون إلى إنشاء ما يسمى بالمركز الدولى فى هذا المستشفى لينظم ويساعد فى تنمية علاقات المرضى الأجانب بهذا المستشفى، ويضم هذا المركز مجموعة من المترجمين، يساعدهم

وقتهم على أن يـرافقـوا المرضى من قسـم إلى قسم، ويتـابعـوا لهم مـواعيـد الفحوص والعمليات.. إلخ، ولهذا كانت كليفيـلاند كلينك أول مؤسسـة حظيت بأن أطلق عليها الكونجـرس و وزارة الصحة والخدمات الإنسانيـة الأمريكية مصطلح " مركز قومى للاستشارات » .. وهى جملـة تعنى ما تعنى ولكنهـا تـرتفع بالمركـز من هاتيك المراكـز إلى المكانـة التى تحتلها فى القضـاء محاكم النقض والإبـرام .. أو المحـاكم العليا كما يسمـونها فى بعض البـلاد. أحب أن أنتهز الفرصـة هنا لأذكر أن الـدكتور محمد كامل حسين عليه رحمة الله حين كـان يتحدث عن القصر العينى (الجديـد أيامهـا) منذ ستين عـاماً يقـول إن الهدف من تطوير القصر وتطوير التعليم والعلاج فيه أن يكون بمثابة محكمة عليا للحالات الصعبة. المعنى واضح وإذا كـان التشبيه بالقضاء لا يروق لك، فخذ مثلاً على ما أريد أن أقول بما يسمى فى فقة طائفة الشيعة بالمرجعية.

تسـألنى عن عـدد الأطبـاء العـاملين فى هـذا المستشفـى فأجيبك بأنهم لايبلغون الخمسمائة فهم حوالى ٤٥٠ ولك أن تعجب من قلة عددهم بالمقارنة بعدد أطبائنا فى الجامعات أو وزارة الصحـة.. ولكنى أعتقد أنك تقدر أن هؤلاء متفـرغـون تمامـاً للكلينك، غير مسمـوح لهم بأى عمل خـارج الكلينك حتى الأطباء العاملون فى أقسام البحوث والتعليم. وأريد أن أكون صادقاً معك حتى النهاية فأستثنى لك النواب الخمسمائة الذين يساعدون هؤلاء الأطباء فهؤلاء النواب هم الوحيدون الذين يستطيعون أن يختطفوا من أوقاتهم المسائية يوماً أو اثنين فى الأسبـوع يكـونـون خـالين فيـه من النـوبتجيـات ليعملـوا فى النوبتجيات المسـائية الساهرة فى المستشفيـات الخاصة الصغيرة .. يسمون هذه النوبتجيات هنا بالعمل فى ضوء القمر Moon Light تعبير جميل بلاشك.. ولكن الأجمل منه أنهم يتقاضـون عن الساعة الواحـدة حوالى ٣٥ـ٤٠ دولاراً

ومع ذلك لا يعجبهم الحال .. مع أن هذه الساعة تفوق مرتب زميلهم المصرى فى شهر كامل!!....

ونعود إلى عدد الأطباء القليل فنجد أنه مسنود بعدد ضخم من الموظفين ـ يكفى لكى تأخذ فكرة عن الموظفين قبل أن أعطيك عددهم الكلى، أن أذكر لك أن لكل طبيب من أطباء القلب ممرضة خاصة وسكرتيرة خاصة ـــ تصور ٤٥ ممرضة و٤٥ سكرتيرة لأطباء القلب. دعك من ممرضات الرعاية والقسطرة والموجات فوق الصوتية والأجنحة العادية، وسكرتيرات الاستقبال والمواعيد وتوزيع الحالات على الأطباء والعاملات على الكمبيوتر.. إلخ كل هؤلاء .. ألا يستلزم هنا أن يكون عدد العاملين فى المستشفى تسعة آلاف موظفاً وموظفة (بمتوسط ٢٠ لكل طبيب) . و تتيح المستشفى لنفسها الفرصة الكبرى من كفاءات النواب حين تتيح الفرصة لتدريب ٥٠٣ نائباً و١٣٤ زميل أبحاث و٢٣٩ من طلاب العلوم الصحية المتصلة بالطب و٤٢٦ طالباً (يقضون شهراً أو شهرين) ، ست وستون منهم طلاب الصف الثالث وثلاثمائةو ستون من طلاب الصف الرابع من مدارس الطب .

هل تريد أن تُكّون فكرة عن أسعار العلاج فى هذا المستشفى ـ نعم لك أن تكّون فكرة عن أن سرير الرعاية المركزة يتكلف فى الليلة ألفاً وخمسمائة دولاراً تقريباً، أما السرير فى الحجرة العادية فيتكلف من ٥٧٥ إلى ٧٧٥ دولاراً فى الليلة الواحدة. أما القسطرة فتلكف المريض ثلاثة آلاف ونصف . وأما فحص الموجات فوق الصوتية فيكلف المريض ألفاً من الدولارات.

كيف يختار هؤلاء المتميزون متميزين جدد للعمل معهم؟ فى أثناء إقامتى كانت كليفيلاند كلينك بصدد إختيار رئيس جديد لقسم القلب، فقد بلغ الأستاذ شيلدون الستين وقد تولى رئاسة القسم منذ الستينات ، وكان هناك

اثنـان يمثلان أبـرز المرشـحين ولـم يبلغـا الأربعين بعـد : أستاذ مسـاعـد من ميتشـجن وأستاذ من جامعة دك .. أما مـرشـح مايو كلينك فلم يلق القبول من اللجنة .. واللجنة مكونة من سبعة من كبار أطباء المستشفى من أقسام أخرى غير القلب.. واختيـار رئيس قسـم جديـد ليس بالمهمـة السهلة على الاطـلاق، ففضـلاً عن الحرص على اختيـــار الأفضل والأنسب تأتى مـراعـــاة رغبـات وفلسفات المرشـحين فقد يطلب الرجل مثلاً خمسين مليوناً للأبحاث كل عام .. قد يرى أنه لا ينبغى لراتبه السنوى أن يقل عن رقم معين!! قد يرى زيادة عدد معامل القسـطرة إلى النصـف.. قد يرى مضـاعفة أسرة الرعاية المركزة أو تعديلاً جـذرياً فى خطـط العلاج فيهـا.. إلخ . ومثل هـذه السيـاسات تـرتبط تمامـاً بالسياسات العامة الكبرى للمستشفى وموازنته .

عملية اختيار رئاسة القسـم أصعب بكثير من أن تُشبه بالمخاض فحسب . يكفى أن نـذكر أن الطبيب العـالمى الدكتـور سون بكل عظمتـه لم يستمر فى مـوقعه وعمل تحت رئاســة شيلدون. و قـد تـوفى سـون منـذ سنوات قليلـة وسميت معامل القسطرة باسمه، ومازال كل من فى القسم يذكرونه ويذكرون فضله .. وقد التقيت برجل عظيم هو الأستاذ إيرل شـيرى Earl Shirey كان أول من عمل مع سون فى القسـطرة ولكنه يحمل لقب Resident Emeritus وله مكتب وأبحاث.

ربما يكون السبب فى شهرة كليفيلانـد فى مصر اهتمامها بجراحات القلب المفتوح وعلى الـرغم من أننا حققنا كثيراً من النجاح فى كليـات الطب وفى معهد القلب القـومى فى إمبابـة إلا أننا لانزال نفضـل أن نعالج أنفسنـا خارج مصر غالباً فى كليفيلاند أو هيوستون تكساس فى الـولايات المتحدة ـ وأحيانا أخرى فى لنــدن ، ومـن حق القـــارىء على أن أتجرد الآن من مهنتـى كطبيب قلب

لاعترف لـه أنـه سيأتى يـوم قريب وقـريب جـداً يصبح فيـه الـذين يجرون جراحاتهم فى مصر فخورين بأنهم أجروها فى مصر ولم يضطروا إلى اللجوء إلى الخارج، ذلك أن مراكزنـا اليوم تتقدم بسرعة رهيبة فى هـدوء، وتتغلب بعزيمة قوية ونيـة صادقة على ما يصادفهـا من متاعب، والأهم من ذلك أن خبرة هذه المراكـز فى مواجهـه المصـاعب تنمو فى بنـاء متكـامل .. .. إلى حين تصل المهن الطبيبـة المساعـدة والموازنة فى مصر إلى النقطـة المثاليـة للإتـزان مع الخبرات الطبية والإمكانـات المعملية وأدعو الله أن يتاح لنـا أى لى ولجيلى أن نشـهد هذا اليوم عن قريب .

تجرى كيلفيلانـد فى العام ثلاثين ألف عمليـة جراحية منهـا ٣٢٠٠ عملية جراحة قلب، هذا الرقم يعطيك فكـرة عن كليفيلاند وكيف أصبحت أكبر مراكز لجراحات القلب فى العـالم. وقد تولى الجراح الأشـهر لوب رئيس قسـم جراحة القلب فى الكلينيك رئاسة مجلس المديرين التنفيذيين فى المستشفى مؤخرا ولهذا خلفه فى رئاسة قسم جراحة القلب الدكتور كروسكوف ، ولايزال لوب يمارس جراحاته ..

ولمصر ثلاثة أقطاب بـارزين فى الكيفيلاند كلينيك سـأحدثك عنهم بترتيب قدومهم إلى الكلينيك .. (وبـالمناسبة هـو نفسه ترتيب أقـدمياتهم فى مصر ..) الدكتور فوزى اسطفانوس خريج عين شمس ١٩٦١ ـ عمل طبيباً بمستشفى صيدنـاوى حتى ١٩٦٧ حيث سافر انجلترا وحصـل على زمالة التخـدير من كلية الجراحين الملكيـة عام ١٩٧٠ فعمل شهراً فى هولنـدا ثم عمل منذ ١٩٧٠ وحتى الآن فى كليفيلاند كلينيك ورأس قسم تخدير جراحة القلب والصدر منذ ١٩٧٦ وحتى ١٩٨٧ ومنـذ ينايـر ١٩٨٧ أصبح رئيساً لأقسـام التخديـر فى مستشفى كليفيلاند كلينك ولكنه لايزال يحتفظ بإهتمامه الشديد فى جراحات

القلب والصدر حيث يمثل الرعيل الأول من أطباء التخدير الذين تخصصوا فى مثل هذا المجال وحولوه إلى شبه تخصص مستقل . وفى ١٩٨٨ تولى فوزى اسطفانوس تحرير كتاب التخدير ومريض القلب بالاشتراك مع ٥١ مؤلفاً .. ومن أطباء التخدير المصريين الأمريكيين الذين شاركوا فوزى اسطفانوس تحرير هذه الكتب: عادل العتر فى فلوريدا ورامز سالم فى شيكاغو ونبيل فهمى فى هارفارد وعزت أبو العيش فى تكساس.

القطب الثانى : الدكتورة فتنة فؤاد ، كانت أولى دفعتها فى قصر العينى ١٩٦٥ وحصلت على الدكتوراه في الأمراض الباطنية ١٩٧٤ من جامعة القاهرة ومنذ ١٩٧٦ وهى تعمل فى الكليفيلاند كلينك وتقود الدكتورة فتنة بحوثاً متقدمة فى مجال ضغط الدم ووظائف القلب الانبساطية والانقباضية .

القطب الثالث : الدكتور محمد عبد الحميد تخرج من كلية الهندسة ١٩٦٧ وكان من أوائل الذين وقع عليهم الاختيار فى مصر (الطموحة إلى التقدم دائماً) للعمل فى المجال الذى اصطلح على تسميته فيما بعد بالهندسة الطبية، وعمل الدكتور محمد عبد الحميد فى معهد السمع والكلام بامبابة وابتعث إلى إنجلترا بعد ذلك حيث حصل على الدكتوراه Ph.D وفى ذلك العام قدم كليفيلاند ينتوى العمل لمدة عام ولكنه بقى حتى الآن لمدة أحد عشر عاماً .. ويرأس الدكتور محمد عبد الحميد معمل وظائف الاتزان فى قسم الأنف والأذن والحنجرة وفى ذات الوقت يقوم بدراسة الطب فى جامعة كيس ليجمع بذلك بين Ph.D وM.D.

أما فى جامعة كيس ويسترن فيبرز عدد من النجوم المصريين فى كثير من الكليات ولأنه لم يتح لى أن أتعرف عليهم جميعاً المعرفة التى تمكننى من الحديث عنهم فإنى سأعتذر عن ذلك توخياً للامانة إلى أن تتاح لى هذه الفرصة ، وساكتفى بأن أحدثك عن الدكتور عادل عبد الفتاح محمود رئيس قسم

الباطنــة فى كلية الطــب وهو خريــج طب القاهــرة ١٩٦٣ وكان أحــد الأقطاب البارزين فى الحركــة الطلابيــة والشبابية ، وهــو الآن أحد الأقطــاب البارزين أيضاً فى مجال الأمراض المعدية .. ويقود فرقاً للبحث فى كثير من المواقع ، وهو الذى تــولى كتابة الفصل الخاص بالبلهــارسيا فى المرجع الطبى الكبير سيسل لوب.

ولابــد أن أذكر لك كــذلك بكل الخير قطبين بــارزين من أطبــاء كليفيلانــد الأحرار الذين يعملون خارج الجامعة أولهما الدكتور سيد حسنى خريج طب الاسكنــدرية ١٩٥٦، وقــد قــدم كليفيلانــد فى ١٩٧٠ حيث يمارس تخصص النساء والتوليد منذ ذلك الحين متمتعًا بسمعة طيبة وبنجاح مطرد ، وبيته هو بيت المصريين فى كليفيلاند وزوجته السيدة نادية هى أم المصريين فى كليفيلاند وثانيهما هــو الدكتور محمــد الملوانى وهــو خريج طب القاهــرة ١٩٦٧ وكان ثانى الدفعة وعمل نــائباً لأمراض النساء والتوليد فمعيــداً وهو اليوم من أبرز المتخصصين فى جراحات الليزر والمناظير .

هل تسمح لى ياسيدى القارىء أن أعود بك الآن إلى أول صفحات كتبتها فى هذا الكتــاب مصوراً على طريقة اليــوميات ما صادفنى فى كليفيــلاند كلينك !! هذه ياسيدى يومياتى الحقيقية :ـ

يوم الأثنين :قبل أن تبلغ الســاعة الثــامنة كنت واقفــاً أمام السكــرتيرة الإيطــاليــة فى المركــز الدولى حيث كــان على أن أمــلأ استمارة تفيــد قــدومى، واستمارة أخرى من أجل التأمين الصحى واستمارة ثــالثة من أجل استخراج البــادج الخاص بى. حتى تصل زميلتهــا ســألتنى السكــرتيرة أن أبقى بعض الوقت فى قاعة للمؤتمرات.

كى استخرج البادج كان على أن أسلك طريقاً محدداً ولا أقول طويلاً . تأخذ مصعد مبنى الفندق الذى أنت فى الدور الرابع منه حتى الدور الأول من الفندق وتمضى إلى الخلف حتى الباب الخلفى للفندق تنتظر هناك أتوبيس المستشفى الأبيض الخاص الذى يحمل حرف A سوف يقودك هذا الأتوبيس إلى المبنى المسمى شوستر ضمن المبانى الأخرى التى يمر بها هذا الأتوبيس .. وهذا الأتوبيس ليس وحده الذى يؤدى هذه الخدمة المجانية فى التنقل بالأطباء والمرضى والزائرين والعاملين بين أرجاء مستشفيات كليفيلاند والمرافق الأخرى المرتبطة بأقسام المستشفيات سواء الفنادق أو بيت الضيافة .. إلخ.

إذا وصلت إلى مبنى شوستر فعليك أن تأخذ المصعد إلى الدور A لأن هذا الدور الذى يوازى الشارع هو الدورC وتحته طابقان A&B وفوقه طابقان D&E وعلى هذا النمط كل أبنية المستشفى ف A لا يناظر A دائماً والأول لايناظر الأول دائماً.. ربما ناظر الدور الثالث فى هذا المبنى وربما ناظر الدور الثانى فى مبنى آخر .. وربما ناظر البدروم الأول أو البدروم الثانى وهكذا ..

ولكنك مع ذلك كله لا تضطرب فى البحث عن هذه المناظرات بل ولا تفكر فيها على الإطلاق .. بل إننى مع تقدم الوقت بى فى المستشفى اكتشفت ولكى أكون صادقاً أو اكتشفت مجموعة من أساتذتنا المصريين الذين زارونا أننى أعرف بعض طرق المستشفى وتخاريمها Shortcut أحسن من بعض الذين يعملون هنا أكثر من ١٥ عاما.. لأنك تجد التعليمات واضحة ومحددة واللافتات الدالة على ما أنت فيه ، وعلى ما تريد ، واضحة ومعبرة ومنتشرة مع كل خطوة تخطوها.

وحين تذهب لاستخراج البادج فإنك تملأ استمارة أخرى وتوقع عليها وتجلس أمام كاميرا ، والكاميرا متصلة بالكمبيوتر ، والسكرتيرة تأخذ اسمك

وتكتبه على لوحة مفاتيح الحروف وفى ذلك الوقت توجه الكاميرا إليك لتأخذ صورتك فى نفس الوقت ، ويخرج لك البادج سريعاً من هذا الجهاز الكاتب المصور المغلف والمحتفظ بالمعلومات فى ذات الوقت . ماذا يسمونه ؟ لست أدرى!! وفى التعليمات المكتوبة فى الورقة أن هذه العملية تأخذ من عشرين إلى خمس وأربعين دقيقة ولكنها لم تأخذ معى أكثر من ثلاث دقائق .. أجد قلمى يريد أن يقول قل خمسة حتى لا تتهم بالمبالغة .

وتطلب السكرتيرة عشرة دولارات كتأمين لهذا البادج تضيع عليك إذا مارست هواية البشر فى الاحتفاظ بالبادج كذكرى. أما إذا أردت الدولارات العشرة فعليك أن تسلم البادج فى اليوم الأخير .

وها أنا أعود حيث أتيت إلى المركز الدولى فى الطابق الرابع من الفندق. فإذا مسئولة التأمين الصحى فى انتظارى لأملأ استمارة أخرى،ثم تعطينى ورقة بموعدى عند طبيب الأسنان فى الساعة الحادية عشرة والنصف عند الديس S - 52 وكل اللقاءات على هذا النحو.. رقم للديسك يتكون من حرف أبجدى ورقم. والرقم يعنى رقم الدور من خانة العشرات والحرف الأبجدى الذى يدلك على المبنى. إذن فعندى وقت من الساعة التاسعة والنصف حتى الحادية عشرة والنصف أقضيه عند الدكتور جبران الذى سوف يكون من حظى أن أعمل معه هذا الأسبوع. فلأذهب إلى F 25. وهذا هو رقم الديسك الخاص بقسم القلب الذى سوف أعمل فيه . إذن فلا بد أن أذهب إلى مبنى F وهو كما تقول الخريطة هو المبنى الملاصق لمبنى الفندق .. إذن فلا داعى للأتوبيس هكذا أفكر بصوت عال أمام السكرتيرة التى توافقنى وتقترح علىّ الذهاب عن طريق ما يسمى طريق السماء..وطريق السماء هذا كوبرى مشاة طويل يبلغ طوله ٧٠٠ قدم عريض لا يقل عن ٥ أمتار، زجاجى الجنبات مكيف الهواء وبساطه من أفخم أنواع السجاد وجدرانه من أروع الديكورات

والزجاجيات..ربما يمـر بخاطرك ذلك الممر الضيق بين مبنيين للبنك الأهلى فى شارع شريف بالقاهرة ولكن هذا لايمثل واحد على المليون من جمال ولا جلال ولا كمال هذا الممر طريق السماء الذى يربط مبـانى مؤسسـة كليفيلاند كلينك الطبية معاً.

وفى طريق السماء هـذا مصاعد لكل مبنى ـــ فإذا إنتقلت من مبنى الفندق إلى المبنى F مثلاً .. فإنك لابد أن تنزل إلى الطـابق الأول من الفندق وهو اللوبى وفى نهايته تصعـد طابقاً لتكـون فى مستوى طريق السماء الـذى تمضى فيه حتى تصل إلى مصاعد المبنىF وهناك تطلب إلى المصعد أن يقف بك [لا تقل هنا يصعد أو يهبط لأن الأمر يختلف من مبنى إلى مبنى حسب مستواها مع طريق السماء] عند الطابق الثانى مثلاً ، وفى الطـابق الثانى تبحث عن الديسك الذى أنت موجه إليه.

أما الدكتور جبران فقد بدأ المرور فى الرعـاية المركزة هكذا جاءنى الرد بعد مـا أستدعـوه بالبليب ولكنى أنـا الآخر سأكـون مشغولاً بـدءاً من السـاعـة الحادية عشرة والنصف .. ويجىء الرد مرة أخرى بعـد الاتصال به بالبليب .. إذن فلأذهب إليه بعدما أنتهى من كل ما يشغلنى. وأمامى قرابة المائة دقيقة يتيحها لى الله لأكتب لكم هذا الذى بدأت كتابته عن كليفيلاند .

هل يكـون حديثـى معك عن بعض التفصيلات فى مستشفـى كليفيلانـد كلينيك حـديثـاً ثقيل الظل بعض الشـىء حين أحدثك عن المستشفى العظيم الذى أتيح لى أن أمضـى فيه هذا الـوقت المثمر .. نحن نقـول دائماً بشىء من الفخر التعويضى إن أمريكا بلد بلا تاريخ أعرق ما فيه عمره مائتا عام .. نعم ياسيدى ولكن معظم ما فيه من رموز الحضـارة الحديثة جداً أيضاً قد قارب عمره على المائة عام !! ونحن لانزال بين يوم وآخـر حين نريد أن نرفع من قدر

شيء نلجأ إلى حقيقة واحدة أو إلى حيلة واحدة ـ لست أدرى ـ فنقول أنه أول مركز وأول معهد وأول برنامج وأول مؤتمر .. إلخ. إذن فنحن فى بلاد العراقة معظم مؤسساتنا لم يبلغ العام، وهم فى بلاد الحداثة معظم مؤسساتهم قارب المائة عام .

نحن فى كليفيلاند وفى كليفيلاند أكثر من جامعة.. هل تعرف هذه الجامعة التى تسمى كيس ويسترن ريسرف يونفرستى؟ والتى ننظر إلى مستشفياتها ـ نحن الذين فى كليفيلاند العظيمة ـ من علٍ!! هذه الجامعة ياسيدى بدأت عام ٢٤ ـ طبعاً تظنّ أنها بدأت بالكاد قبل جامعة القاهرة بعام واحد ـ نعم لك الحق ياسيدى إذا ظننت ذلك، ولكن من حقك علينا أن نقول لك إنها بدأت عام ١٨٢٤ وليس ١٩٢٤ .. وكليفيلاند هذا الصرح الطبى أنشىء عام ١٩٢١ حين وجد ثلاثة من أساتذة هذه الجامعة أنهم سيتقاعدون بينما هم لايزالون يحبون أن يمارسوا الطب .. فبدأوا بناء هذا المستشفى وانتهوا منه فى عام. وقد كان أجر العامل يوم بنوا هذا المستشفى دولاراً لكل ساعة ، وفى تلك الأيام كان الغداء يتكلف ٢٠ سنتاً أى خمس دولار، وكان طابع البريد بسنتين وقد قام أول مبنى فى هذا المستشفى على مساحة ٧٦ قدماً × ١٢٠ قدماً واستخدم فى بنيانه حوالى ٤٨٠ ألف طوبة وقد عهد بتصميمه إلى المهندس العظيم الليربى Ellerbee وهو نفسه الذى تولى بناء مستشفى مايو كلينك العظيم من قبل . أما اليوم فتقوم الكلينك على مساحة ١٠٥ هكتار أى أكثر من ١٠٠ فدان وتضم عدداً من المبانى المتباينة تماماً فى ذوقها وبنائها ومعمارها يبلغ عددها أكثر من ٣٠ مبنى ولكنها مرتبطة مع بعضها كما حدثتك من قبل بطريق السماء وسأحاول أن أصور لك الأمر بشىء من التفصيل مع أن كل القريبين منى يجمعون على أنى أسوأ من يشرح !! .

أنت الآن فى شارع يوكليد ، و الـذى يُفتَرض أن عنوان الكينك عليه رقم ٩٥٠٠ شارع يوكليد ، ويوكليد هـذا عالم يونانى . وأنت الآن قادم من وسط البلد .. ستجد إلى اليمين مبنـا قديماً له مدخـل صغير على الشارع تكاد العين تخطئه اليوم .. نعم لأنه اليوم مدخل فرعى لقسم صغير هو مركز الأورام.. إذا دخلت من هذا البـاب وعَبْرت الطرقة الطـويلة التى تمر عبر قسم الأورام فإنك تجد نفسك فى مـــدخل استقبـــال فسيح (يكفى عليـــه وصف فسيح لأننـــا سنصـادف بعد هذا مـداخل فسيحة جداً مدخل M ومداخل فسيحة جداً جداً كمـدخل مبنى F&G ومـداخل أخـرى ليس إلى وصف فسـاحتهـا من سبيل كمدخل مبنى A) هذا المدخـل الذى ستجده بعـد قليل يمثل ياسيـدى المدخل الحقيقى لأحد الأجنحة الثلاثة الضـخمة التى تكون مع بعضـها شكل حرف U الذى يتمثل معه المستشفــى القديم تماماً . أما الجناح الأيمـن فهو الذى يضم المبانى التــى تحمل حروف M,S&T وأما الجنـاح الذى يمثـل حرف U فيضم المبانى التى تحمل حروف A,G&F وأما الجناح الأيسر فهو مبنى البحوث . أما مبنى T فهو مخصص للعيادات الخارجيـة وأما حرف S فهو الآخر للعيادات الخارجيـة . والعيادات الخارجيـة مصطلح يعنى تلك الأجـزاء من المستشفى التى لا تقتضى مـن المريض المبيت بـــالمستشفى ، إنما هـو يـأتى المستشفى يعـالج أو يشخص من دون أن يبيت فيـه ، وفى هذا المبنى فى الـدور الخامس مثـلاً عيادات الأسنـان ، وفى الـدور السادس القســم الذى يتـولى تشخيص أمراض الجهاز الـوعائى بواسطة الدوبلـر وأما حرف M فهو مستشفــى فيه عنابـر داخلية، ويضــم أيضا مستشفى الطـوارىء وفيه أيضــاً عيادات الألم التابعة لقسم التخدير فيما بين حرف S وحرف M يوجد مبنى كامل للأغراض التعليمية اسمه مبنى التعليم Education فى هذا المبنى قاعات عديدة للمؤتمرات وفيه المكتبة .. وتجتمع هذه المبانى الأربعة M,S&T والمبنى التعليمى على مدخل

واحـد جميل فيـه الماكينـات الخضراء التى تسمح لك بصرف أمـوالك التى فى البنوك ببطـاقات الفيـزا .. وفيه كـافيتريا للـوجبات السريعـة .. وفيه خـزينة للتأمينـات والمستحقـات وفيـه مـاكينـات بيـع الصحف وفيـه أكشـاك للإستعلامات وأكشـاك للدعاية لمشروعات التوعية الصحية المتنـوعة كالحملة ضد السموم ـ أو ضد السرطان أو ضد الإيدز أو من أجل التغـذية السليمة.. إلخ . وفيه مكتب للبريـد .. كل هذا يـاسيدى تجده فى المدخل الـذى تبخل عليه عظمة كليفيلاند بكلمة فسيح جداً .

أكـون مقصراً فى حق المبـانى الأربعة إذا لم أقل لك إن لها مـداخل أخـرى فالمبنى T كما قلت لك لـه مدخل على شـارع يـوكليد نفسـه وللمبنى التعليمى مـدخل خلفى على الشارع الشرقـى التسعين وإلى الجانب الآخر من الشـارع تجد أحـد الجراجات الكبرى بـالمستشفى ومبنى M وهو مبنى الطـوارىء له مدخل هو الآخر على الشارع الشرقى التسعين .

هـذه هى المبانى الأربعـة التى تمثل الجناح الأيمن من الكتلـة الكبرى من كليفيلانـد كلينك ... تصور نفسـك قادماً معى مـن وسط البلد مـاراً بشارع يوكليـد حيث الباب الصغير الـذى يطل به مبنـى حرف T على شارع يـوكليد، فإنك تجد قبل هـذا المبنى عـدداً من المبانى يطل على شـارع يـوكليد ولكنهـا لاتنتمى إلى كليفيلاند كلينـك ـ ولكن وراء هذه المبانى مبـاشرة يهمنى أمرها ـ وتقع الثـلاثة فيما بين الشـارع الشرقى التاسع والثمانين والشـارع الشرقى التسعين إثنان منها جراجانْ .. أحـدهما اسمه جراج الموظفين .. والثانى اسمه جـراج التسعين أما المبنـى الثالث فهـو مستشفى ويحمل حـرف P. هـا أنت يـاسيدى تـدرك الآن أنه لابـد لحرف P وللجـراجات أن تتصل عبر الشـارع التسعين بكتلـة المستشفى الأصلية من دون أن يعبر المرضى أو الموظفـون أو

الزوار الشـارع .. نعم .. وهناك شبيه بطريق السماء فـوق الشارع التسعين الشرقى . أعود بك إلى حرف U ها أنت قدمت من شارع يوكليد سواء بالسيارة أو على قـدميك ودخلت فى حـرف U حيث النـافورة التى تتوسطـه والتى تمر حولها السيـارات ـ وأنت الآن عـرفت أنه فى الشمال يقـوم مبنى البحوث وإلى اليمين المبانى الثلاثة M,S&T فماذا فى الواجهـة ؟ فى الواجهة يـاسيدى ثـلاثة مبان أحـدث عمراً من السـابقة ـ تبـدو لك كأنها مبنى واحد ولعلهـا كذلك .. مدخلهـا فسيح جداً جـداً ـ ينضم إلى مدخلهـا جزء كبير من مسـاقط النور ـ ومسـاقـط النور فى هذا المدخل مغطـاة بالـزجاج ولكن ليس من الطـابق الأول وإنما من الطـابق الثانى .. وإذن فـلارتفـاعها عظمـة شـاهقة تـريح النفس وتبهرهـا فى نفس الوقت والفكرة المعمارية فيها تقليد لفكرة العمارة الإسلامية فى مسـاقط النـور الداخليـة ـــ والجلوس فى هـذا المدخل الكبير متعـة كبيرة ، صـالـونات فخمة وزهور جميلـة وتليفزيونات ذات شـاشات كبيرة الحجم ، تكييف جميل ، فـاذا مـا تجاوزت المدخل الفسيـح جـداً إلى عمق المدخل حيث مساقط النور المغطاة بالزجاج الجميل على هيئة هرم أو نصف هرم أحسست بالراحة التامة من هذا المعمار المريح .

أما مبنىF فهو مخصص للعيـادات الخارجية ومكاتب الأطبـاء وأما مبنى M&G فهما مـخصـصـان للجراحـات والرعـايـة المركزة والأقسـام الداخليـة للمـرضى. وترتفـع هـذه المبانى أحـد عشر دوراً . تـرقِد أن تسـألنى عن بقيـة مبانى الكلينك . دعنـا ننظر من علٍ كما لو كنا فى طائرة مـن فوق الكلينك كله لأصور لك الأمـر كله تصويـراً بسيطاً . إذا كـانت مبانى المستشفى تطل على ميدان فسيح يطل على شارع يوكليـد وإذا كانت المستشفى تأخذ شكل حرف U وإذا كانت مبانى H&G وكذلك P بمحاذاتها تمثل قاعدة حرف U فعلام تطل هذه القاعدة من الجانب الخلفى ؟ إنها تطـل ياسيدى على شارع عظيم لا يقل

اتساعاً عن شارع يوكليد وهو مسمى باسم رجل عظيم آخر هو كارينجى . أنت الآن ستدرك بذكاءك ، وأنه لابد هناك امتداد لكيفيلاند بعد شارع كارنيجى نعم ياسيدى هناك مبنى ضخم جداً جداً هو مبنى حرف L وهو المخصص للمعامل .. وفيه جزء كبير شبه مستقل مخصص لأجهزة الرنين المغناطيسى وقد صمم معمار هذا المبنى بحيث لا يسمح للتأثيرات المغناطيسية أن تؤثر على الأجهزة العاملة فيه وقد كان هذا هو الاعتقاد فيما مضى ، أما بعد التطوير التكنولوجى فقد أمكن التغلب على هذه الصعوبة . طبعاً ياسيدى لابد من طريق السماء يعبر فوق شارع كارنيجى ليوصل المعامل بمبانى المرضى H&G وبقية كتلة المستشفى . حين أكون واقفاً فى حجرات المرضى فى الرعاية المركزة فى مبنى G فإننى أطل على شارع كارنيجى من هذه الحجرات . وشارع كارنيجى هذا من حيث المرور يطبق قاعدة مهمة جداً فهو من يوم الإثنين وحتى الجمعة من الرابعة وحتى السادسة والنصف يكون اتجاهاً واحداً فقط ناحية الشرق ، وفيما عدا ذلك فهو اتجاهان.

لك ياسيدى أن تتجاوز كل هذه الفقرات التى أكتبها فى وصف المبانى والخرائط وتستغفر لى ولنفسك عن اللحظة التى فرضت فيها على نفسك أن تقرأ هذا الكتاب الممل - ولكننى لن أسامح نفسى إذا أهملت وصف المبانى والشوارع والمرور - وأهملت من الحضارة إنجازاتها الرائعة وتنظيمها الدقيق وتغلبها على كل المشكلات التى تصاحب النمو المتراكم والاتساع المدروس عبر السنوات .

أريد أن أقول ياسيدى إن هذه المبانى التى أحدثك عنها ليست مبعثرة أكثر من بعثرة مبانى طب عين شمس التى تظنها متبعثرة بين عين شمس التخصصى على يمين الخليفة المأمون .. وعين شمس القديم على شمال

رمسيس والدمرداش من خلفه والنساء الجديد مستشفى الأطفال ومركز الطب النفسى فى عرب المحمدى ومبانى الكلية والمدرجات والأكاديمى خلف مسجد النور .وليست مبعثرة أكثر من بعثرة مستشفى قصر العينى القديم والجديد وأبو الريش واليابانى ومستشفى الباطنة والمدرجات والأكاديمى ومستشفى النساء... إلخ.ولكنهم ياسيدى أكثر منا قدرة على الربط و التوحيد، وتحويل الأنغام المتفاوتة والضربات المختلفة التون إلى سيمفونية واحدة .. هذه هى موسيقى الإدارة والتخطيط ياسيدى .

☐☐ خرائط واضحة .

☐☐ مسميات لا لبس فيها ولا تكرار تعتمد على الحروف والأرقام والاختصارات لا على الأسماء الطويلة أو الرنانة أو المكررة .

☐☐ لوحات إرشادية مبعثرة فى كل مكان .

☐☐ معمار جميل يبتدع أشياء من قبيل مايسمى بطريق السماء طريق مقفول لا مدخل له إلا من هذه المبانى ـ عال لا يشغل الأرض لا يقطعه المرور ولا يقطع هو المرور ، جدرانه من الزجاج تجعله واضحاً وتجعل السالك فيه مهتديًا تماماً إلى المواقع التى من أمامه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله . مزدوج الفائدة إذ تتم فيه أيضا برامج تأهيل المرضى بالمشى بعد العمليات الجراحية الكبرى .

وأعود بك ياسيدى إلى مبنى المعامل لأذكر لك أنه يحتل الكتلة الكاملة التى بين الشارعين الشرقيين الثالث والتسعين والسادس والتسعين فكأنما الشارعان الرابع والتسعون والخامس والتسعون جزء من كتلته لو كان لهذه الكتلة أن تنقسم على نحو ما تقسمت فى مواضع أخرى من المدينة . وها أنت

تدرك الآن أننى لا أذكر لك الشارع السادس والتسعين إلا لأحدثك عن مبنى جديد يطل عليه .. نعم ياسيدى هناك مبنى للبحوث يطل عليه . إذن وعلام يطل مبنى البحوث الجديد هذا ومبنى المعامل من ناحيتهما الأخرى .. إذا كانا يطلان بواجهتيهما على شارع كارنيجى فإنهما يطلان من الناحية الأخرى على شارع سيدار . وهو مواز لكارنيجى ويوكليد .

ياالله .. هل رأيت إلى الآن كيف تمتد المستعمرة لتطل على ثلاثة شوارع رئيسية كبرى من التى تعبر كليفيلاند من شرقها إلى غربها .. وسيأتى ذكر الرابع والخامس فيما بعد . لم يعد أمامنا كثير .. فها نحن الآن فى الشارع الشرقى السادس والتسعين الذى تستطيع أن تصفه بأنه الشارع العرضى الذى ينصف المستشفى تماماً أو هكذا يبدو لك فى الخريطة وفى الواقع .. أنت الآن تدرك أيضاً لماذا يطلق على المستشفى رقم ٩٥٠٠ يوكليد لأنها ياسيدى (أو لأن بابها القديم) كان على شارع يوكليد فى المربع الذى بين الشارعين الشرقيين ٩٥ و ٩٦ وهكذا تستحق رقم ٩٥٠٠ ـ لعلى أنتهز الفرصة هنا لأشرح للقارىء أن الأرقام الضخمة التى يجدونها للبيت فى الشوارع ليست ذات دلالة على أن هذا الشارع ٩٥٠٠ بيت مثلاً . وأحياناً تصل االأرقام إلى خمس خانات وليس معنى هذا أن البيوت فى الشارع (أو الطريق تصل إلى تسعة وتسعين ألف .. ولكن المسألة فى منتهى البساطة أنهم يتركون خانتى الآحاد والعشرات للبيوت التى فى المربع حتى ولو كانت بيت واحداً .. لماذا ياسيدى يفعلون هذا ـ حتى يسهل التعرف على موقع البيت فى الشارع الطويل بموقع الشوارع العريضة فأنت فى منتهى السهولة تستطيع أن تدرك أن ٩٥١٠ شارع كارنيجى يكون موازياً لـ ٩٥١٠ شارع يوكليد .. وهكذا دعنى لا أترك هذه النقطة الا بعد أن أذكر لك أن مؤدى هذا كثيراً من الشوارع لن تبدأ أرقامها من رقم ١ ولا حتى من رقم ١٠١ وخذ على سبيل المثال الشارع

الذى سكنت فيه أنه يبدأ برقم ٢١٠٣ ومعنى هذا أن حدوده على الخريطة لاتبدأ إلا عند الشارع الشرقى الواحد والعشرين وهكذا . وفى أمريكا تجد الشوارع التى تمضى من الشمال والجنوب تحمل أرقاما ، أما الشوارع التى تمضى من الشرق إلى الغرب فتحمل أسماء . وفى مدينة واشنطن تحمل شوارع الشرق إلى الغرب حروفاً بالإضافة إلى الأسماء. لم أجد هذا الشرح مكتوباً فى كتاب ولكنى أجهدت نفسى حتى استنتجت، ولم أحصل على إعتماد رسمى له بعد ولكنى مع هذا أحب إن أقول لك إن بوسعك الاعتماد على هذه المعلومات.

أعود بك ياسيدى إلى الشارع السادس والتسعين حيث يفتح الفندق الخاص بالكلينك أبوابه على الشارع .. وفوق هذا الشارع يمر طريق السماء .. وعلى هذا الشارع نوافذ عديدة لمبنى البحوث ومبنىF ومبنىG ومبنى L ومبنى للبحوث غير ذلك المبنى المتصل بالمستشفى F وهو مبنى البحوث الثانى الذى يطل على سيدار والسادس والتسعين . على هذا الشارع أيضاً يطل مبنى كبير جداً ومهم جداً لا يقدر قيمته غير المصرى الذى يذهب القاهرة من حين إلى آخر فيرى الجراجات متعددة الأدوار ويشكر للحكومة جهدها فى بنائها .

هذا هو الجراج الثانى من جراجات المستشفى واسمه جراج شارع يوكليد يطل من الشمال على يوكليد ومن الشرق على السادس والتسعين ومن الغرب على مدخل المستشفى (بحيث يكون على يدك اليسرى وأنت داخل المستشفى مقابلاً لمبانى T&S ومحاذياً لمبنى البحوث المتصل بالمستشفى F وبين مبنى شارع يوكليد طريق صغير اسمه طريق الكلينك تمر به كل السيارات التى تريد أن تأتى من كارنيجى إلى باب المستشفى.

يحتل الفندق (وكذلك مبنى البحوث الثانى المطل من بعد على سيدار] مربعاً يمتد ما بين الشارع السادس والتسعين والشارع المائة وفيما بين الشارع الشرقى المائة والشارع الشرقى الثانى بعد المائة هناك الهرم الضخم أقصد المبنى الجديد ذا الأدوار الخمسة عشر على هيئة الهرم الذى أفتتح عام خمسة وثمانين .. وهو مبنى A وكل هذا المبنى مخصص للعيادات الخارجية .. والعيادات الخارجية هنا تتسع لتشمل كثيراً مما نسميه فى الطب بالـProcedure أو العمليات التى يقوم بها الأطباء الباطنيون كالمناظير مثلاً ـ وكذلك القسطرة فى القلب ، ولو أن القسطرة هنا مرتبطة بمبنى المستشفى نفسه لارتباطها الآن بكثير من الجراحات.

وفى الحقيقة أننا فى مجال الطب فى البلاد المتكلمة بالعربية لم نحدد حتى الآن كلمة لمثل هذه العمليات Procedure ومع أنه يصدق عليها كلمة عمليات بالفعل ولهذا فإنه يمكننا أن نقول عنها العمليات فحسب ونخصص كلمة الجراحات للعمليات الجراحية .. ويصبح الفرق واضحا بين الـ Procedure والـ Operation أو بين العمليات والجراحات إلا أن هذا الذى أقترحه الآن فى هذه الفقرة لم يجد مكاناً على أرض الواقع بعد، ربما يأخذ أساتذتى وزملائى بما أرى . ولكن من الصعب (خاننى القلم ـ أريد أن أقول وليس من الصعب) أن يتفهم الجمهور فى المستقبل ذلك الفرق حين يرى اللافتات وقد كتب عليها حجرة العمليات ولافتات أخرى وقد كتب عليها حجرة الجراحات.. فأنا من الذين يحسنون الظن بالجمهور إلى أبعد الحدود.

وأذكر أننى كنت من الحريصين دائماً على لفت الأنظار (بل والتغيير باليد فى كثير من الأحيان) فيما يتعلق بتسمية الأمراض الباطنة ـ كانت كشوف أقسام الكليات ووزارة الصحة تسميها الباطنية ـ وكنت لا أترك فرصة التنبيه

إلى ذلك حتى مع الموظفين الـذين يكتبـون الكشـوف فى الكليات المختلفـة حين كنت أتـولى إصدار الخبرات الطبيـة ــ لا أزعم أننى صاحب دور كبير فى هـذا التصحيح ، ولكنى أستطيع أؤكد أن أحداً من حوالى خمسين نبهتهم إلى هذا لم يـرفض ما طلبت إليـه وهذه نسبـة عاليـة جداً من الايجابيـة التى يتمتع بها شعبنا العظيم العريـق ومن الطريف أن واحداً من أساتذتـى الأفاضل قال لى مازحاً اللـه يفتح عليك، ريحتنا من سيرة الباطنية بكل ما فيهـا من موبقات .. يقصد السمعة التى يتمتـع بها حى الباطنية فى تسويق المخـدرات . وقد أفدت بالطبع من هذه اللمحة .

إلى الجنوب من مبنى A نجد الجراج الثالث واسمـه جراج الشارع المائة .. يطل على شارع كارنيجى بواجهته البحـرية ويطل بواجهته القبلية على شارع وليبر وهـو شارع طـولى آخر يقع بين كـارنيجى وسيـدار . ولا يبدأ إلا بعـد الشـارع المائة .. فيما بين كارنيجى و وليبر وإلى الشرق من جراج الشـارع المائة نجد مبنى E وهو مبنى مستشفيات .

وفيما بين كارنيجى ويـوكليد وإلى الشرق من مبنى A الضـخم نجد ثلاثة مبان متـالية مبنى الغسيل الكلـوى ويحمل حرفD وبعـده مبنى يحمل اسم يوتر ميللين ثم مركز حصوات الكلى الأولان فيما بين ١٠٢ و ١٠٥ والأخير إلى الشرق مـن ١٠٥ . إلى هنـا ياسيـدى تنتهى كل مستعمـرة الكلينك التى على يمينك وأنت قادم فى يوكليد من غرب المدينة ومن وسطها ـ إلى شرقها . كل هذا على يمينك وكل هــذا متصل تمامــاً ببعضــه حتى مبنى A بطـريق السماء بالإضـافة إلى الأتوبيسـات الخاصة التى تنتقل بين مبانى المستشفى .

مــاذا عن اليسار ؟ مـا هى المبـانى التى إلى يسارك وأنت قـادم من وسط المدينة فى يوكليد. هنـاك إلى الغرب وقبل أن تصل إلى أول باب للمستشفى على

يـوكليـد .. هنـاك وقبل الشـــارع التــاسع والثمانين تجد مبنى من مبـــانى المستشفى يقع مـا بين يـوكليـد إلى الجنـوب وشيستر إلى الشمال، وفيما بين التاسع والثمانين والتسعين هناك متحف كليفيلاند للوعى الصحى وفيما بين التــاسع والثمانين والتسعين تجد مســاحة كبيرة من الأرض الفضــاء ولافتــة ضخمة تحمل عنوان برج الكلينك لا أدرى هل سيقـوم فيها هرم جديد ضخم ولكنى أعتقد أنـه لابد من ذلـك ربما بعد ٢٠٠٠ مباشرة !! و فيما بين الثـالث والســابع والتسعين يقع بيت الضيـافة الخاص بـالكلينك. وفيما بين الســابع والتسعين والأول بعـد المائة مبنى W وهو مـركز شيستر للمـؤتمرات .. وهو المبنى الذى نحصل منه على البادج الذى نمرره من ظهره فى الأبواب فتنفتح وفى عوائق الجراجات فترتفع ونمضى به فى طرقـات المستشفى وحجراته فيعرفنا زملاؤنا ويعرفون كل ما يحبون عن تخصصاتنا ومكانتنا.

الفصل السادس

فى قسم القلب بكليفلاند

أحب أن أصـور لك بعضـــاً من الطب الأكلينكى فى مجال القلب (Clinical Cardiology) وكيف يمارس الأطباء الأمريكيـون الطب على الرغم من انغماسـهم إلى آذانهم وربما إلى أعلى من آذانهم فى الطرق الحديثة للتشخيـص (الدراسات الكهربائية الفسيولوجية ، أو الدراسـات غير النافذة بالموجات فوق الصوتية، والطب النووى ، والرنين المغناطيسى، أو بـدراسات رسم القلب ذى المجهود أو الديناميكى فضلاً عن دراسات القسطرة وتصوير الأوعية) .

سأجلسك معى عند واحد من هؤلاء الأطباء الذين ينتمون إلى هيئة الأطباء Cardiology Staff بعد أن انتهى من معمل القسطرة . هذه هى أولى المرضى وهى سيدة فى الـرابعة والستين من عمرها نطـالع فى ملفها المتضخم تقريـراً مطولاً بنتيجة الفحص الأكلينكى الـذى أجرى لها ، والفاحص ليس معنا ولا أمـامنا وكأننا إذن فيما نسميـه فى امتحان الـدكتوراه المصرية بـالحالة المطـولة التى يفحصـها الفـاحص (طالب الدكتـوراه) ويكتب كل شىء عنها ويمضى لحال سبيلـه من دون أن يحضر أمـام الممتحن ! الفحص أكثـر من ممتـاز ، دقيق ، وشـامل ، ومنظم ، وقد استطاع الفـاحص أن يستقصى كل شىء تقريباً حتى تـاريخ العـائلة كلـه بـدءاً من الأم والأب والأخـوات .. إلى الجدود إلخ . وكيف

انتقلوا إلى العالم الآخر . صدق أو لا تصدق أن الذى يتولى هذا الفحص ممرضة (أو ممرض) على مستوى عال من الكفاءة والتمرين والدراسات العليا بعد نيابة متصلة متواصلة .

هذه هى الأشعة وهذا ما نسميه (ظل العملة) فى رئة السيدة والذى قد يوحى لنا أن هناك شيئاً سرطانياً مثلاً قد أصاب هذه الرئة .. وبخاصة أنها مدخنة لم تتوقف عن التدخين ، وأن أشعتها منذ ٤ سنوات لم تكشف عن هذا الظل . السيدة لم تأت إلينا لهذا السبب بالطبع وإنما جاءت تشكو سرعة ضربات قلب ، ورسم القلب ينبىء عن أنها مصابة بالرجفان الأذينى Atrial Flutter وهى حالة علاجها سهل وميسور ولكنه سيدوم معها لفترة طويلة واجتماع هذه الحالة مع شىء فى الرئة لا بد أن يجعلنا نبحث عن الطبقة البطانية من القلب وهل أصابها ارتشاح أم لا . وفيما عدا هذا ليس هناك ماتشكو منه السيدة سوى أنها تظن أن هذه الضربات قدتكون نتيجة لحالة الضيق التى اعترت أحد شرايينها التاجية من قبل واستدعت توسيعه بالبالون - وأودعت فى ملفها صور شرايينها قبل التوسيع وبعده بما ينبىء أن عملية التوسيع بالبالون قد نجحت . و يضم ملف هذه السيدة مالا يقل عن مائتى صفحة . و ليس فى تحليلاتها الحديثة إلا زيادة فى نسبة Alkaline Phosphatase وهى زيادة يمكن التعويل عليها فى ترجيح احتمال وجود إصابة ورمية ما .

و بعد الفحص اكلينكى كامل يضع الطبيب قراره أمام مريضته :

□□ لابد من إجراء أشعة مقطعية على الصدر. ولا بد من إجراء تحليل الدرن. و يقوم الطبيب بنفسه إلى سكرتارية العيادة الخارجية للتوصية على تنسيق هذه المواعيد فى الغد ثم يعود إلى مريضته بالمواعيد !!

□□ لا بد من إجراء تحليل للغدة الدرقية رغم أن الفحص الإكلينيكى قد أظهر سلامتها ولكن لا بأس من الأطمئنان ..

□□ فيما يتعلق بعملية التوسيع وتقييم مدى نجاحها لا بد من إجراء اختبار رسم قلب بالمجهود بعد الفراغ من التحليلات السابقة .. وفى ذات الوقت لا بد من فحص القلب بالموجات فوق الصوتية !!

□□ لا بد من أن يتولى طبيب صدر فحص الصدر وأشعته ونتائج الأشعة المقطعية .

□□ لا بد من إيقاف التدخين . لا بد من فحص الثدى كل عامين ، ومن المرور على طبيب أمراض النساء والولادة كل عامين .

□□ هذا هو الديجوكسن وهذه هى جرعته!

الحالة الثانية رجل قارب الثمانين تصحبه زوجته ، يفاجئة ظلام أمام عينيه Syncope حيناً بعد حين . له آراؤه الذاتية فى الطب والأدوية .. الطبيب يحترم آآرائه من دون أن يسلم بصحتها ، والمريض معتز بآرائه .. والطبيب يكرر احترامها ثم يلفت نظره إلى أنها آراء شخصية . وسوف نجرى لك ياسيدى الفحوص الكفيلة بأن تكتشف سبب هذا الذى يحدث لك وإذا استدعى الأمر علاجاً فى المستشفى كمريض داخلى فسوف نخبرك بالتشخيص ولك وحدك مسئولية اتخاذ القرار ... قد تحتاج إجراء دراسات كهروفسيولوجية قد تقتضى أسبوعين من البقاء فى المستشفى ، ونحن نعرف أنك لا تريد ذلك ولكننا سنرى فى الغد فى معمل القسطرة ما هو القرار الأمثل لحالتك .. وهذا المريض لا يقل إرهاقاً لطبيبه عن أى مريض من مرضى الشرقية الذين يقتلون الدكتور لطفى شهوان كل ظهيرة وكل مساء .. والصعوبة فى هؤلاء المرضى ياسيدى القارىء وأرجو ألا تكون منهم أنهم يريدونك أن تؤمن بما يقولون من تفسيرات ، لأنهم يرونك تؤمن على مايروون من أعراض! وشتان بين الحالين ! ثم إنك إذا جاريتهم من باب أدب الاستماع إلى محدثك للنهاية أصبحت فى نظرهم لا مجرد مؤمن فحسب على كلامهم ، ولا مجرد مؤمن بكلامهم ، وإنما أصبحت بحكم هذا الإيمان

الظاهرى الذى يتـوهمونه قد أصابك واحداً من الأتباع الـذين عليهم طاعة من يؤمنون به !!

ربما كان من الصعب عليك ياسيـدى القارىء أن تتصـور أن هذا يحدث ، ولكن الأطباء الممارسين يعـرفون أن الـذى يحدث ليس إلا الصـورة المكبرة من هذا التصويـر اللطيف الذى يكتبه واحد منهم فى ساعـة صـفاء وتأمل ورضـاء نفسـى .

لا بد من الوقوف واستئـذان هذا المريض وزوجته .. والطبيب يقف ولكنى غير قادر لأنى أعـرف أن مثل هذا المريض سيـوقف الطبيب بعد كل هـذا مرة أخرى وأنا لسـت غير قادر على الوقوف أثناء هـذا الاستيقاف ولن أنهض من كرسىَّ حتى يفتح الطبيب بـاب الحجرة بيده اليسرى ويمد قـدمه اليمنى إلى خارجها .. وأقول لك أننى كنت على حق لأن مد يد الطبيب اليسرى إلى الباب لم يحدث إلا بعد عشر دقـائق ومد قـدمه اليمنى إلى خـارج الحجرة لم يحدث إلا بعد عشر دقائق أخرى .. وكانت الدقـائق العشرون بالطبع كافية لاصابتى أنا الصائم المعانى من آثار التخدير فى الضحى باغماء حقيقى لا مجرد هذا الذى يشكو منه مريضنا فى بعض أحيان متفرقة .

المريض الثـالث رجل وسيم ضـخم البنيـة ، يقدمنى إليـه الطبيب فإذا بـه يعرفنـى تماماً ، ويقول لنـا إنه رآنى من قبل حين كـان بأعلى Upstairs نعم أنا أعرف وجه هذا الـرجل وقد تذكرته من أول نظرة ، ولكنى أحسبـه أحد الذين حضرت قسطرتهم .. والقسطرة تجرى فى نفس الدور الثانى.. كيف يقول هذا الرجل بأعلى .. أهـو لا يعرف الأدوار !! ولكنى سرعان ما انتبه إلى الـرجل وهو يسـألنى كم يتبقى من رمضان ياسيدى !! ياالله !! الرجل يعرف أننى صـائم فى رمضـان .. هذا لا يتاح لمريض القسـطرة الذى ندخل فيه على عجل بعيداً عن كل طعـام وشراب .. الآن فقط تذكـرت .. هذا المريـض زرناه بعـد عملية تـوسيع

الشرايين وكان فى الدور السـابع .. أصاب المريض وأخطأ الطبيب الذى يحسن الناس فى كل مكان الظن بذاكرته الحديدية .. أو التى علاهـا الصدأ ، و علاها الصدأ تعبير متفاءل بديل عن التعبير الأكثر صـواباً وهو أنهكهـا الصدأ كما ينهك الحديد .. وليت ذاكرتى كانت خشبية فقط !!

هـذا الـرجل يتعـاطى مـا لا يقـل عن اثنى عشر دواء ومن واجبنـا اليـوم الخميس أن نعيـد تنظيم هذه الأدويـة له قبل خـروجه بيومين فمـن المقرر أن يخرج السبت ولا بد من أن نطلع على آثار سياستنا الدوائية فى خلال الساعات الثمانى والأربعين القـادمة قبل أن يخرج ويسـافر ويشكـو بالتليفـون!! هذا الـرجل تصحبه زوجتـه وهى سيدة ممتـازة ، لا تزال رغم سنـواتها السبعين محتفظـة بروح التلميـذة المجتهدة ، معهـا بطـاقات صغيرة بتفصيـلات كل شىء، بالأمس صباحاً فى الثامنة صباحاً أكل زوجها كذا وكذا ، وبعدها بسبع دقائق تقىء تقـريباً كذا وكـذا ، وبعدها بسـاعتين تناول مشروباً وفى الثـانية وعشر دقائق اشتكى من كـذا .. ثم إنه فقد حـوالى كيلو جرام من وزنـه ! كان مائتى رطل وأصبح ١٩٨ ، ولا تنس يـاسيدى أنـه حين دخل المستشفى كان وزنه ٢١١ رطـلاً . وكل دواء وكل جرعـة مسجلة فى هذه البطـاقات الصغيرة التى تحملها هذه السيدة العظيمة فى جيب معطفها ومعها قلمها ، وهى تستمع إلى كل ملاحظـة يبديها الطبيب وتسجلهـا من فورها فى الموضـع المناسب من هذه البطاقات وزوجها هـو الآخر رجل عظيم ، نقاشه يعطيك الإيحاء بأنه من الذين يجيدون معاملتك على أنك برىء حتى تثبت إدانتك مع إيمانه التام بأنك متهم حتى تثبت بـراءتك! وأنتهز فـرصـة انشغال الطبيب الأكبر فى الـرد على تليفون لأسأل السيدة عن مهنـة زوجها .. كان ياسيـدى قبل تقاعده يعمل فى شركة تأمين ، كان يتولى فحص قضايا التعويضات كلها .. صدق رسول الله : اتقوا فراسة المؤمن! .

هـا نحن ننتهى مع السيدة إلى إيقـاف حبـوب البوتـاسيوم نهائيـاً ، وإلى

الإمساك عن مجموعة أدوية المعدة والأمعاء والكولشسين الخاص بالنقرس حتى تهدأ المعدة من تهيجها ، ثم ها نحن نعيد تنظيم جرعات الكابوتين والكورداورون والديجتالز واللازكس كل هذا قبل أن نقوم إلى حجرة الكشف .

فى حجرة الكشف يكتشف الطبيب أن جرحاً فى الساق لم يلتئم من القصد الأول .. فيذهب بنفسه إلى السكرتارية ليستدعوا أحداً من الجراحة .. لا بد من أخذ مسحة من الجرح لإجراء مزرعة ـ و يأتى رئيس التمريض الجراحى ويتولى تنظيف الجرح وربطه ـــ وها نحن نضيف مضاداً حيوياً جداً هو الأوجمنتين ولا بد من كتابة روشتة للسيدة بالأدوية التى ستحتاجها طيلة شهر كامل وباعدادها على وجه التحديد ـ تسعون قرص من هذا ، وأربع وعشرون من ذاك ، وثلاثون من ذلك ، وهكذا وليس هناك شىء بالتقريب فى هذا البلد ، فالتحديد قد يكلفهم شيئاً من وقتهم عند التخطيط ولكنه يوفر لهم أضعاف ما ينفقون فيه .

بعد كل هذا يتلطف الطبيب فى إخبار الزوجة بأنه سيكون سعيداً لو طلبه طبيب الولاية التى يقيمون فيها تليفونياً ، وسأله عن كل شىء أو عن أى شىء فإن ملخص الخروج لا يغنى شيئاً عن حديث التليفون!! مع أن هذا الذى يسمونه ملخص الخروج ست صفحات مكتوبة على خير ما تكون الكتابة على الآلة الكاتبة وفيها كل شىء .. ولكنه معنى آخر من معانى الإنسانية! والسيدة تعقب وتحكى لى أنهم كانوا فى زيارة إبنتهم قرب بوسطن وكانوا يظنون أنفسهم يعودون إلى ولايتهم فلوريدا بعد أسبوع وهاهم لا يعودون إلا بعد ستة أسابيع!!

أظننى ياسيدى القارىء قد أطلت عليك فيما لا أظنك مغرماً به من هذا الذى نراه كل ساعة أو فى كل ساعاتنا .. لا عليك ولا علىّ من هذا التعذيب. تريدنى ياسيدى أن أنتقل بك من حجرات الكشف الباطنى إلى معامل القسطرة وعندك حق .. لك الحق فى أن تمل عملنا الإكلينيكى وأن تمل القراءة

عنه فى كتاب رحلات .. ولكنى لا أظن أن لى الحق فى أن أتجاهله وأنا أحكى لك .. هل كان فى وسع المتنبى أن يسكت عن شعب ومـا فيه ؟ نعم أن الشِعْب لشىء جميل .. ولكن أجمل منه الحضارة التى نعيشها اليوم .

وأنـا أعـرف أن مهمتى فى كتـابة رحـلاتى شـاقـة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعـة كما فعل الـذين سبقـونى .. ولكنى أحـاول أن أصف الحضـارة ، ووصف الطبيعـة لا يستلزم إلا الحاسـة الصـادقـة .. أما وصف الحضـارة فيستلـزم مع هـذه أقـدارا متنـاميـة من الـدقـة والإحـاطـة والتعمق والفهم والترتيب.. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لا فارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جنديـاً قارب نيل الشهادة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها .

فلنأخـذ يوماً من الأيـام التى سعدت فيهـا بالعمل فى معمل القسطـرة مع الـدكتورين جـريجبرا وفكس هذه هى أسماؤهم الأخيرة أمـا أسماؤهم الأولى التى نتنـادى بها فهى فرنـانـدو وجيمس . بدأنـا بحالـة مـريض بالشريـان التاجى.. نحاول أن نوسعها بالبالون . لم تفلح محاولة البالون .. كان فرناندو جاهـزاً بالآلة الجديدة التى تقطع أو تمزق أو تفتت هـذا التصلب الموجود على بطانة الشرايين .. وها هو يفعل ويذيب هذه التصلبات التى فى الجذع الرئيسى للشريان التاجى الأيسر ، و فى الفرع الـدائرى. الحالة الثانية ألم فى الصدر غير معروف السبب ، وهـو محول إلى هذا الصرح لنرى موقف شرايينـه التاجية .. بدأ فيكس فركب القسطرة وأتم كل التحضيرات وحين جاء فـرناندو وصورنا المناظر الروتينية كلها اتضح أن شرايين الرجل كلها لا تعانى من أية ضيق .. سجلنا كل هذا وأجـرينا بالطبع ما لا بـد من إجرائه فى كل حالة وهـو تصوير البطين الأيسر بالصبغـة بينما كنا نتـادى على المريض الثالث فقـد أما المريض الثالث أتاه احتشاء قلبى منذ أسابيع ثلاث و اتضح أن سببه خثرة thrombosis

اذيبت فى وقتها . وهو الآن محول إلى القسطرة قبل أن تجرى له عملية الـ - By Pass يفحصه الدكتور جريجيرا فيجد الشرايين كلها مفتوحة ، ولكن الجذع الرئيسى للشريان الأيسر فيه ضيق لا يتعدى الخمسين فى المائة ! ولكن الضيق واضح ومع هذا تمتلىء الشرايين وتفرغ تماماً .. صحيح أن القلب لا يزال متأثراً بالندبة التى تكونت نتيجة الاحتشاء ولكن الإمداد الدموى سليم .. هل تُجرى لهذا المريض جراحة قد تكلفه حياته وهو الذى لا يعانى من شىء الآن! أم نتركه معرضاً لخثرة أخرى قد تكون كفيلة بالقضاء على حياته ـ وهو فى الخامسة والأربعين . هذا هو السؤال الذى أخذنا نحاول الإجابة عليه لمدة ساعتين .. بعد أن جاء الدكتور تايلور الجراح المحول إليه المريض .. وبعد أن اشترك معنا فى الحديث طبيب القلب الدكتور كايسر .. كنا أربعة نتحدث بينما جيمس صامت .. فلما قاربنا على الإفتراق صمم الجراح الكبير على أن يسأل جيمس ما رأيك وهو يعرف أن جيمس لن يقول شيئاً لأنه لو أراد لقال منذ مرحلة مبكرة ولكن الأستاذ حريص على أن يرضى ضميره الذى تعود على سماع كل وجهات النظر.

أما معامل الموجات فوق الصوتية فتضم ١٦ جهازاً وهى بالتالى قادرة على أن تؤدى ٨٠ ـــ ١٠٠ حالة فى اليوم ـــ ولكنها فى المتوسط تجرى ٢٥ حالة فى اليوم لأنها تعمل كل يوم ولا تكف عن العمل وليس هناك طابور طويل يقف فيقف كل من فيه .

وفى وسع الأمريكان أن يستمعوا إلى الرأى القائل بأنه لا ينبغى لهم أن يشتروا جهازاً جديداً ولا أن يضيفوا إلى الأجهزة الجديدة آخر ما دامت الأجهزة الموجودة من قبل لم تستنفد طاقتها ٢٤ ساعة .. كما ينادى بعض البيروقراطيين المصريين الذين يرتدون مسوح الثورية الشديدة فى الوقوف أمام كل توسع فى الامكانات الموجودة فى مواقع الإنتاج . ولكن هؤلاء الأمريكيين

قوم تعلموا منذ زمن حكمة الخالق جل علاه الذى جعل لكل عضو من أعضاء الجسم احتياطى كبير بحيث لا يحس الجسم أى أثر طارىء يعترى أى عضو من هذه الأعضاء.

فنيو الموجات فوق الصوتية والمرضات هم الذين يقومون هنا بالفحص، و لكن الأطباء وقد خلت أيديهم من المسابر (المجسات) يقفون على رؤوس هؤلاء فى كل حين يراقبون ويصححون ويتدخلون ويعيدون منظراً أو صورة ويتأكدون من قياس أو نتيجة ويناظرون جلطة أو كتلة أو أنوريزماويتتبعون مسار حلقة عضلية أو جهازاً من أجهزة تدعيم الصمام المترالى .. وهكذا .

وكل هؤلاء عندهم فكرة أننى قادم اليوم وأن « كيف» ينتظرنى ولكنه مع حالة فى حجرة ، ويتكرر أمامى اسم «كيف» هذا وفى النهاية إذا به دكتور عاكف أبو الرميلة من الضفة الغربية ، وفيما بعد أسبوعين وجدت ممرضات الأدوار العليا يختصرون اسمه بطريقة أخرى فيسمونه الدكتور «أبو» لأنهم لايعرفون كيف ينطقون «الرميلة» وقد سبقه إلى هنا طبيب فلسطينى آخر كان واحداً من فسلطنيين عديدين هيأ لهم الدكتور جبران الفرصة للعمل فى المستشفى من خلال هيئة فلسطينية محترمة مقرها فى سويسرا تتولى تمويل تعليم هؤلاء إلى الحد الممتاز الذى يجعلهم بمثابة مراجع عليا فى الضفة الغربية المحتلة . وهذه الهيئة الممتازة لا تكتفى بتعليم هؤلاء وإنما تزودهم فور تخرجهم بالأجهزة التى يعملون عليها ـ ويحرصون فى اختيار هذه الأجهزة أن تكون أحدث وأعظم الأجهزة المتاحة ـ وفى القدس الآن واحداً من أحدث أجهزة الموجات فوق الصوتية يتولى تشغيله طبيب فلسطينى نابغ تلقى تدريبه هنا فى كليفيلاند .

ويبدو أن المجتمع الدولى قد بدأ ينظر نظرة مختلفة إلى عرب الضفة الغربية وغزة ، فهذا مكتب الميدايست يبتعث المرضات من الضفة الغربية إلى

مستشفى كليفيلانـد ، والضوء الأخضر فى الوظـائف الأمريكية مضـاءاً تماماً اليوم أمام الفلسطينيين، و الله تعالى أسأل أن يفك كربهم جميعاً .

وأحب أن أتناول الآن الحديث عن زملائى فى الرعـاية المركزة فقد يعطيك هذا صورة حية عن الأطباء الأمريكين الشبان .

هناك هيكل واضح فى الرعاية كما فى كل مكان.

هناك ثلاثة نواب يقضون فترة نيابتهم.

وهناك ثلاثة زملاء فى عامهم الأول من الزمالة .

وهناك اثنان من الزملاء فى أعوامهم المتقدمة من الزمالة.

أما النواب الثلاثة فهم مور More وهو شخص ضخم البنيـة حسن الخلق وحسن الخلق أيضاً عمل نائباً للعظام فى بدايـة نيابته ولكنه سرعان ما تحول إلى الأمراض الباطنة وهو جيد الاستماع جيد الفهم .

جاستون شتيرن Stern تخرج تبعاً للنظام الـذى يعطى شهادة .D.O وهو دودة كتب كما يقولون ولكنه لطيف ومتواضع رغم كل ما قد يبدى من غرور، إذا قدم حـالة وكثيراً مـا يفعل فإنه يفيض فى تفصيـلات لا أول لها ولا آخر ، ولكن ميـزته الكبرى ــ كطبيب ــ أنه حـريص على تفسير كل شىء فى ضـوء مايعرف وحين لا يعرف ـ وقليلاً ما يحدث ــ تراه ينتقد نفسه إلى حد أنه ذات مـرة بدأ حـديثه عن الحالـة (وكانت حـالة لاعتـلال عضلة القلب من النـوع المتمدد) بالقول بأنه لا بد أن يـرميه الأستاذ من الشباك !! هكذا لأنه لم يحقق نجاحاً فى العلاج.

النائب الثالث هـو نبيلة رحمة الله باكستانية وقد ابتـدرتنى فى أول أيامنا بـالقول : أنت صـائم ومن المفترض أننى كـذلك ولكننى كما تـرى لا أستطيع الصوم فى ظل هذا العمل ، وإلا كانت حماقـة ! ونبيلة ملمة تماماً بكل المنهج ـ

عندهـا فكرة واضحة عن كل فصـول كتاب «القلب» وربما ساعـدها على ذلك أنها تحمل فى جيب معطفهـا الأبيـض مـذكـرات ملخصـة لـلأجـزاء التى لم تستوعبها بعد من موضوعات القلب .

وقـد أتيح لى ذات يـوم أن أطلـع على كتـابها الخاص « سيسيل لـوب» فى الأمراض الباطنة فأدركت كم عانت هذه الفتاة فى سبيل دراستها للطب. ولابد أن أسجل أن " نبيلـة " التى كانت أصغـر من ميشيل ومن جاسـون لم تكن تقل عنهما أبداً لا فى مستواها العلمى ولا فى المستوى المهنى.

يساعد هـؤلاء النواب الصغار أو يشرف عليهم ثلاثة آخـرون من الزملاء الـذين أنهوا لتـوهم فترة النيـابـة . ريتشارد جـريم نموذج بـارز للوسـامة الأمريكيـة حيث تجد شعره قد نسُق بـالليل وكل ليل بحيث يعطى فى الصباح ذلك المنظر الجميل لخصلة تأتى من الشمال إلى اليمين تتقـدم الرأس بخمسة سنتميترات على الأقل ـ ووجهـه الأبيض وعيونـه الزرقاء يعطيـان لهذا الشعر الأصفر بعـدين آخرين ـــ ثم هو هـادىء الأعصاب ، خفيض الصـوت ، وهو النموذج الأمثل فى نطقه الأمريكى للغة الإنجليزية (على طريقة الفرنسيين) بما يحذف من ثلاثة أرباع الكلمة.

واعتقـد أنك تعـرف أن الأمريكـان يختصرون كل مـا يمكنهم اختصـاره ويحولـون الكلمات إلى وهذا هو الآخر بـدوره يختصر كل الكلمات إلى حرفيها الأولين وحين يفعل ذلك فى براءة يبدو لك كما لو أنه لن يستطيع أن يكمل نطق الكلمة وإلا ذهب ضحية استكمالها ..

ريتشـارد يقضى عامـه الأول فى زمالـة القلب ولهذا يضغط عليه الأطبـاء الكبار بالأسئلة العلمية وينتظرون منه دوماً أن يجيب بمجرد البدء فى السؤال، وكثيراً ما يكون عند حسن ظنهم .

فيليب جرين Green نموذج آخر للهدوء النفسى والتـواضع والالمام التام بعمله وبعمل غيره . لا تكـاد تدرك أبـداً أنه من الفئـة المتوسطـة بين النواب ، وإنما يعتريك الشعور دائماً أنه من الصغار ، نظراً لتواضعه ، و اندماجه التام فى عملهم . بلا إنه كثيراً مـا يتولى قراءة الشيت بدلاً منهم – وعلى قـدر تعاطفه التام مع زملائه اللاحقين فإنه حريص على أن ينبه إلى أية ملاحظة ذات شأن اكلينيكى تفوتهم أثنـاء النقاش وهو حين ينبـه إلى ذلك خفيض الصوت ، حيٌ ولكنه قاطع باليقين .

الثالث Holden كـان فى أجـازة ولكنـه حين عـاد كنت قـد انتقلت إلى معمل القسطرة فلم أتعامل معه كثيراً ولكنه فيما اتضح من حديثنا المتكرر ولقاءاتنا العابرة شخص نبيه منتبه ، سليم الفطرة.

إذا انتهينا من هـؤلاء الستة بقى لنـا الإثنان الكبيران . أمـا كلفن فهو من أصل أيـرلندى وهـو فى التاسعـة والثـلاثين من عمره وقـد وصل فى الطب إلى مرحلة الـStaff ولكن فى فرع آخر هـو طب الطوارىء حيث قضى ٦ سنوات فى طب الطـوارئ بالطيران وغيره واكتسب خبرة كبيرة فى هـذا المجال ، وكـان قد قضى ٣ سنوات نيابة فى الأمراض الباطنة . ثم إذا هو يبدأ الزمالة من جديد فى أمراض القلب. ربما كان محظوظـاً أن النظام الطبى سمح له بمثل هذا التغيير بعد كل هذا الوقت ، وربما كان ملاماً من زملائه أن يبدأ من جديد . ولكنه على أى الأحوال سعيـد بهذا الذى هو فيه . كلفن هـذا هو المسئول عن مسـاعدتى طيلة وجـودى فى الرعايـة المركزة وهو لا يـدخر وسعـاً فى ذلك . له الفضل فى تعريفى على مهل بكل تفصيلات نظام التعليـم الطبى فى أمريكا وله الفضل فى تعريفى – التعريف العميق – بكثير من العاملين فى قسم القلب ومعامله ، وبكل الذين فى الرعاية المركزة بالطبع . وعنده قدرة ممتازة – ربما بحكم السن وربما بحكم الخبرة فى تخصصين مختلفين . على مَنْطقـة الحوار ـــ أقصـد أن يجعل للحوار رؤساً وعناوين كبيرة بدلاً من أن يتركه يمضى خبط عشواء .

ذات يوم بعد ما تعبنا من الوقــوف طيلة ساعتين ونصف الساعة فى مرور الرعـاية المركزة قلت لــه ولزميلــه مارك : لماذا تمرون وقوفـاً ـ لماذا لا تمرون جلوساً؟ قــال فى تعاقب : لو كان الأمر بيـدنا لمررنا جلوسـا ـ بعد أقل من ٢٤ ساعة كان الأمر بيدنا نحن الثـلاثة ـ أرسل إلينا الدكتور جبران لنبدأ المرور ـ نظرنا إلى بعضنـا ودعونا الزملاء والنواب إلى حجـرة المؤتمرات ومررنا ونحن جلوس!! كلفن متزوج مـن زميلة تحمل درجة .Ph.D فى العلوم وتعمـل معنا فى معمل الفسيولوجيا الكهربية (EP) فى قسم القلب ولهما ثلاثـة أولاد صغار لهم أسماء أيرلندية جميلة ـ بارك الله لهما فيهم .

الزميـل الثانى وهو مـارك رجل طبيب يبلغ من العمـر ثلاثين عامـاً قضـى نيابته فى نيـوجرسـى حيث عاش لفترة طويلـة من حياته ـ وحين تقدم لـزمالة القلب كانت رغبته الأولى مايو كلينك وكانت الثانية مباشرة كليفيلاند ـ تحققت لـه رغبته الثـانية ـــ وسط عـدد كبير من المتقدمين لـزمـالة القلب كل عـام فى الولايات المتحـدة الأمريكية . و مارك رجل عملى إلى أبعـد الحدود ، حين أسأله عن شيء فإنه كان يؤثر أن يمضـى معى إلى موضعه بدلاً من إضـاعة الوقت فى الـوصف الصعب فى مستعمرة كبيرة . آراؤه فى الكتب الطبيـة قـريبة جـداً من رأيى إلى حد كبير. من العجيب أننا كنا نحن الثلاثـة متوافقين تماماً فى صياغة كثير من آرائنا فى أثناء المرور . تجمعنى بالزميـل الصغير موضوعية الرأى عن خبرة تكاد تكون متقاربة ، وتجمعنى بالزميل الكبير منطقية التفكير وتحكمها فى تصريف الأمـور. و مع هذين الـزميلين ومع أمثـالهما فى معامل القسطـرة والموجات فوق الصوتيـة والطب النوىّ من بعد أحسست أننى حيث ينبغى أن أكون منذ زمن طويل ـ لم أحس الغربة لا فى الفكر ولا فى الأداء .. كلاهما جدير بالاحترام وباعث على الاحترام وحريص على الاحترام .

أريد أن ألخص لك نظـام التعليم الطبى فى ولاية أوهايو كنمـوذج لولايات أمريكـا ـ لأنى أعرف أنك تعـرف أن لكل ولاية نظـاماً ، ولابد عنـد الكلام عن

أمريكا الواسعة من التحفظ ياسيدى ـ ومع هذا فإن هذه الصورة على كل حال سوف تعطيك فكرة عامة عن نظام التعليم الطبى فى أمريكا .

هناك بعد الثانوية العامة كليات ـ هذه الكليات اسمها College يدرس فيها الطالب لمدة ٤ سنوات ـــ بعدها هناك Medical School يدرس فيها الطالب ٤سنوات أخرى . إذن هنا الـــ College التى تناظر كليات الجامعة عندنا فى مرحلة البكالوريوس يتخرج فيها الطالب بما يوازى البكالوريوس ـ ويكون مهيئاً لأن يعمل مثلاً بالتدريس ، أو أن يعمل كباحث ، أو أن يحضر الماجستير أو أن يحضر الدكتوراه فى فلسفة العلوم التى هى .Ph . D.

طبعاً قبل كل هذا يتمنى أكثر خريجى الكليات أن يكونوا مهيئين لأن يكملوا دراستهم الطبية فى المدارس الطبية ولكنهم بالطبع وطبقاً للنظام التعليمى ليسوا كلهم مؤهلين لدراسة الطب فى مدارسه .

وفى ولاية أهايو على سبيل المثال أكثر من ٢٠ كلية ـ يتخرج فيها ما يزيد على ثلاثة آلاف ومن بين هؤلاء تتاح الفرصة لأعداد قليلة فى ست مدارس طبية هى على سبيل الحصر على النحو التالى :

١ ـ المدرسة الطبية فى جامعة أوهايو الحكومية فى كولومبوس وتقبل ما لايزيد عن ٢٠٠ طالباً فى العام الدراسى .

٢ ـ المدرسة الطبية فى جامعة كيس ويسترن ريزرف فى كليفيلاند وتقبل حوالى ١٠٠ طالب .

٣ ـ الكلية الطبية فى جامعة سنسناتى Cincinnati وتقبل حوالى ١٠٠ طالب.

٤ ـ كلية أوهايو الطبية فى توليدو وتقبل حوالى ٥٠ طالباً .

٥ ـ المدرسة الطبية فى جامعة رايت الحكومية فى دايتون Dayton وتقبل حوالى ٩٠ طالباً .

٦ ـ كلية أوهايو الطبية فى أثينا ـ أوهايو وتقبل حوالى ٢٠ طالباً .

وهذه الكليــة بالــذات تسير حسب نظام أقل شيــوعاً فى أمريكــا تعطى من خلاله شـهادة .D.O إختصـاراً لما يسمى (Doctor of Osteopathic) وهذه الشـهادة فى النظام التعليمى الأمريكى معادلة تماماً لشـهادة .M.D.

وبالإضـافة إلى هذه المدارس توجد الكليات الطبية الآتية : ـ

١ ـ كلية أوهايو الطبية فى سنسناتى .

٢ ـ كلية الطب Eclectic فى سنسناتى .

٣ ـ كلية ميامى الطبية فى سنسناتى .

٤ ـ القسـم الطبى فى جامعة وسـتر ـ كليفيلاند .

٥ ـ كلية توليدو الطبية فى توليدو .

٦ ـ كلية كليفيلاند الطبية فى كليفيلاند .

٧ ـ كلية كليفيلاند Puti فى كليفيلاند .

٨ ـ جامعة أوهايو الحكومية ـ كلية الطب Homeopathic فى كليفيلاند .

٩ ـ جامعة شمال شرق أوهيا ـ كلية الطب فى رووستون .

ويتخــرج من المدارس الطبيــة الست التى ذكـرناهــا عــدد لا بأس بـه من الدكاتــرة يحملون لقب .M.D فيكون أمــامهم طريـق مفتوح على النحــو التالى يبدأون سنة الامتياز Internship تليها سنوات النيابة Residency (التى تؤهلهم لشـهادة البــورد الأمريكيــة فى التخصصات العــامة) تليهــا سنوات الـزمالـة Fellowship (التى تـؤهلهم لشـهادة البـور الأمـريكى فى التخصصات الخاصـة كالقلب). فإذا أردت التخصــص فى الأمراض الباطنـة ، فإنك سوف تبـدأ بعام الامتياز فى الباطنة ــ فهو بمثابة عامك الأول من النيابة وتكـون محتاجاً بعده إلى عامين آخرين فقط لتكون قد قضيت فترة النيابة .

الميزة الكبرى هنــا ـ التى أحلم بأن أجد سبيــلاً إلى تطبيقها فى مصر أن كل الخـريجين يقضــون فترة نيابــة حسب ما يــرغبون من تخصصــات ، بل وفى

المكان الـذى يرغبونـه بقدر الإمكـان (تبعاً لترتيب رغباتهم ، كثيراً مـا تكون الرغبـة الأولى هى الأولى بالتحقيق). و لكن المأســاة التى أصرخ منها فى مصر هى مأســاة الفـرص غير المتكافئـة. فعلى حين يلقى الطبيب المقيم الـذى نـال وظيفـة فى الجامعة حظـاً ممتازاً فى تعليم ممتـاز وفرص ممتـازة فإنه أيضـاً يحظى ببدء النيـابة مباشرة. أمـا الباقون فإنهم غـالباً ما ينتظـرون مالايقل أحيانـاً عن ٣ سنوات لبدء النيـابة . ربما لا يكـون الفرق بين الواحـد منا من المحظوظين وبين الآخرين إلا درجات قليلة. ومع هذا يكون الفرق حوالى ثلاث سنـوات فى بدء الخبرة الاكلينيكيـة التعليميـة. و المشكلة ليست فى السنـوات الثلاثـة وإنما فى تباعد الفترة بين الدراســة العلمية [بجانبيهـا النظرى العملى والاكلينيكى] وبين التطبيق الميدانى والاعتماد على النفس .

الميـزة الثانيـة التى أحب أن أتحدث عنهـا هى أنهم لا يبـدأون نيابـات فى الباطنـة الخاصـة والجراحـة الخاصـة كما حـدث وتوسعنـا فى هذا الاتجاه فى جامعات مصر. الله وحده يعلم أيهما الصواب أن نبدأ بالتخصصات الدقيقة فى مرحلة النيابة أم أن نؤجلها إلى مرحلة الزمالة .

على أية حـال أحب أن أضع أمامك صورة لتـوجهات خريجى إحـدى هذه المدارس الطبية الستة فى صياغة مستقبلهم العملى . المدرسة هى مدرسة رايت المسماة على اسم الأخـوين أصحاب محاولـة الطيران المشهورة . يتخـرج هذا العام ٨٤ سيتوزعون تبعاً لرغبـاتهم على النحو التالى: ٢٤ فى الأمراض الباطنة العامة ، ٨ فى طب الأطفال ، ٩ فى النسـاء والتوليد ، ٩ فى الجراحة ، ٤ فى الأشعة، ٢ فى التخـدير ،، ١٩ فى طب العـائلـة و٥٢ من الخريـجين بنات ، ومن هـؤلاء قضت إحـداهن أسبوعين معنـا فى قسم القلب وكـانت تخطط أن تقضى فترة نيـابتها فى الأمـراض البـاطنة فى مستشفى صغير اسمـه مستشفى St. Lukes Hospital وهى تفضل العمل فى هذا المستشفى الصغير على العمل فى كليفيـلاند

لأنها أثناء دراستها درست فى الإثنين ووجدت [وهى على صواب] أن العمل فى سان لوكس سيكون أكثر فائدة وإمتاعاً لها لأنها ستشاهد حالات كثيرة من الأمراض شائعة وموجودة فى كل مكان، أما فى كليفيلاند فهى لن ترى إلا الحالات التى تقدم بها المرض واحتاجت القدوم إلى هذا الصرح العظيم .. أليس هذا التفكير لشابة فى مقتبل عمرها دليلاً على بشائر النجاح العملى والمهنى . وتضيف كيه (وهذا هو اسمها وهو اسم جاميكى ينطق كحرف الكية الإنجليزى تماماً) أن كليفيلاند كلينك ليس فيها النظام الجميل المريح الذى فى ذلك المستشفى الذى عرفت الناس فيه ودرست أحوالهم جميعاً.

بقى أن أطلعك على جانب مهم من حياة خريجى الطب وطلابه فكيه هذه متزوجة منذ أربع سنوات مع تأجيل الإنجاب . . فى عاميها الأول والثانى فى المدرسة الطبية درست التشريح والبيولوجى والفسيولوجى والباثولوجى والفارماكولوجى والميكرولوجى والوراثة. و فى عامها الثالث آثرت الجراحة والنساء والأطفال وطب العائلة والنفسية. وفى عامها الرابع درست الباطنة والطوارىء والأشعة والتخدير والقلب والأعصاب والعظام.

أحب أن أحدثك بعد هذا عن طالب الطب الأمريكى . ولطالب الطب هنا احترام شديد.، أمامى بالصدفة على مكتب قاعة الاجتماعات خطاب من مؤسسة كليفيلاند كلينك التعليمية لطالب فى السنة الرابعة أنه قد رُشح طالباً فى قسم القلب لمدة شهرين وأن له إذا وافق على ذلك أن يحضر صباح يوم الاثنين ، إلى مبنى التعليم ، فيتسلم الكارنيه الأصفر الخاص به ، وهو كارنيه بالاسم بلا صورة ، وأن يتسلم معطفين ، وله أن يترك سيارته فى الأماكن التالية ... وأن يحضر يومياً من السابعة والنصف وحتى الخامسةمن الاثنين وحتى الجمعة ، وأن الطبيب (فلاناً) سيكون هو المسئول عن تعليمه وأن السكرتيرة (فلانة) هى المسئولة عن الأمور الإدارية التى قد تعرض له .

وتحضر المؤتمر من مؤتمرات الأقسام فتجد هـؤلاء الطلاب (بنين وبنات) هم أكثرنـا جميعاً أناقـة وشياكة .. فشعـورهم خرجت لتـوها من الصالـونات ، وربطـات عنقهم هى الأحـدث ، والأجمل ، وهى المودة ، قمصـانهم هى الأملح والأكثر جـاذبية .. وهكذا ، أصـدقك القول أنى بعـد حين من الوقت أصبحت قادراً على تمييـز الطلاب حين نكـون فى قاعـة المؤتمرات وهى مظلمة نشـاهد شرائح أو أفـلامـاً بمجـرد أن أنظـر إلى رءوسهم وأعنـاقهم وقبل أن أصل إلى صدورهم حيث يضعون الكارنيهات الصفراء.

ومعنـا فى قسم القلب طـالب نشيط هـو تيم ، فى السـادسـة والعشرين وعروسه فى الثامنة والعشرين ، وهو يقيم هنا فى كليفيلاند وهى تقيم فى كنت ـ حيث يقيم والـداه ، وصـاحبنـا لا يغـادر المستشفـى قبل أن يطمئن على كل مرضاه ، ويبلـغ النائب والمرضات بملاحظـاته عن أية اضطـرابات فى نظام القلب ، وروح المسئولية عنده فى الحقيقة تبشر بكل خير لهذا الشعب الأمريكى الذى يعتقد العالم فى إهماله!!، وفى كل أسبوع يذهب إلى كنت مرة واحدة ليرى خطيبتـه لأن السيدات يخترعـن لك مشكلات كثيرة يـاسيـدى إذا غبت عنهن لفترة ما !! هذه هى الكلينك التى ليست تابعة لكلية من كليات الطب ، ومع هذا أبت على نفسهـا إلا أن تنشئ مـؤسسة تعليميـة لنفسهـا ـ وأن تتـولى تعليم النواب والامتيـاز والزمـلاء والمرضـين والفنيين بطـريقة نمـوذجية جعلتهـا بالفعـل واحدة من المؤسسات التعليميـة فى الطب الأمريكى وإن لم تكـن كلية طب.

وفى أثناء إقامتى فى كليفيلاند وبعد كتـابة هذه السطور، علمنا من الجرائد أن اتفاقـاً قد وُقع بين جامعة أوهـايو الحكوميـة وبين الكلينك لتتولى الكلينك التدريس لطـلاب مرحلة البكالـوريوس كما تتولى التـدريس للمتخرجين ومن المنتظر أن يبدأ هذا النظام من العام الدراسى القادم مباشرة .

دعنى أحدثك عن بعض النشاط التعليمى الذى أشارك فيه فى قسم القلب ففى كل يوم فى الصباح المبكر ما بين السابعة والنصف والثامنة والنصف يجتمع كل زملاء القلب فى قاعة مؤتمرات القلب ثلاثة أيام ، وفى قاعة مؤتمرات الباطنة يومين آخرين حول شىء ما ـ يوم الأربعاء مثلاً هو يوم الموجات فوق الصوتية تعرض عليهم فيها حالات مشوقة أو صعبة أو نادرة.

فى كل يوم من الأيام الأخرى نستمع جميعاً إلى محاضرتين ممتازتين، ربما عن شىء جديد ، ربما عن رؤية جديدة لمشكلات طبية قديمة .. ومن أبدع ما يمكن تلك المحاضرة التى اشترك فيها أربعة .. طبيب عرض المعلومات الاكلينيكية وآخر عرض نتائج الفحص بالموجات فوق الصوتية وثالث عرض نتائج الفحص بالرنين المغناطيسى ورابع عرض نتائج الفحص بالقسطرة .. وكانت الحالة التى ناقشنا تشخيصها بكل هذه الوسائل تمزق الأنوزيميا التى فى جيب فى القلب اسمه جيب فالسفا ، شىء عظيم عظيم . هكذا تمضى الساعة الأولى من وجودى فى المستشفى فى كل يوم وبعد ذلك ينصرف كل إلى وحدته أو معمله الصغير.هل أحدثك عن النشاط التعليمى فى وحدة الرعاية المركزة مثلاً.. ريثما استقر الجميع فى أعمالهم فى الوحدة وكانوا كلهم جدداً .. بعد أسبوع تقريباً وزع الدكتور جبران عليهم أوراقاً علمية لكى يحضروها ويلقوها ويناقشوا فيها .. متى سيتم ذلك .. عندما تهدأ الأمور فى حوالى الثالثة عصر كل يوم. وكل خميس يأتينا فى وقت الغذاء ما بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة واحد من أطباء الأشعة هو الدكتور وايت وهو شعلة من الذكاء والمنطق والخبرة (الإكلينيكية والإشعاعية) ومعه مجموعة هائلة من أفلام الأشعات الممتازة يضعها واحداً بعد آخر ، أو اثنين وراء اثنين على الفانوس أو الفانوسين ويشرح ما نسميه بالنظرى على الأفلام مباشرة !! رائع وأكثر من رائع .. ثم بعد أن يعطينا المعلومة يكثر من التطبيقات عليها.

فى ثانى مرة كان زميلاى مشغولين بحالة من الحالات الحرجة ، فأصبحت

أنا تقريباً أقدم الموجودين وأكثرهم خبرة على حد تعبيرهم - وعلى هذا كان المترددون فى التشخيص يأخذون جانب الأقدم حين يعجزون عن تكوين رأى ذاتى - والحمد لله قلما خذلهم الوقوف إلى جانب الأقدم.

وانتقل للحديث بك عن النشاط التعليمى فى حجرة جانبية من معمل وظائف القلب .. لا يمرُّ مريض على المستشفى أو العيادات الخارجية إلا ويؤخذ له رسم قلب ، ويوضع هذا الرسم بالطبع فى ملف هذا المريض. ولكن كل هذه الرسومات تسجل على شريط أو كاسيت وترسل الكترونياً إلى هذه القاعة المسماة بقاعة رسومات القلب .. حيث تطبع كل الشرائط القادمة وتوضع على هذه المنضدة الطويلة التى عليها كل وسائل القياس الخاصة برسومات القلب.. بدءاً من المساطر إلى الفرجارات وحتى العدسة المكبرة .. إلخ. هذه الأدوات البسيطة التى نحتال بها على فهم أسرار رسم القلب الكهربائى.

ويأتى زميل من زملاء القلب Fellow فيتولى قراءة الرسومات جميعاً بعد ما قرأ الكمبيوتر ، فإذا وافق تشخيص الكمبيوتر كتب أنه موافق ووقع بحروفه الأولى ، وإذا أراد تصحيح شىء صححه ، ووقع ، وإذا أراد إضافة شىء أضافه ، ووقع.

وهناك خمسة من أساتذة القلب Staff يتولون القراءة النهائية لكل واحد منهم يوم ، ويوم الثلاثاء هو يوم الدكتور الفلبينى ، ويوم الأربعاء هو يوم الدكتور هودجان ، ويوم الخميس هو يوم الدكتور ويتللو ، ويوم الجمعة هو يوم الدكتورة جاميس وهى أصغر أعضاء هيئة أطباء القلب على الإطلاق.

كان من حظى أن اتولى وظيفة الزميل القارىء لمدة أسبوع كامل، فى اليوم الأول كان معى زميل وفى الأيام الثلاثة التالية كنت بمفردى. ربما تعرف من عيوبى أنى عجول فى كل شىء .. وما إن فهمت نظامهم فى التعقيب والإضافة إلا كنت أذهب مبكراً بحيث أصبح الفنيون والعاملون فى حجرة رسم القلب

لايلاحقوننى بالرسومات ويعجبـون من تواجدى المبكر وتركيزى وسرعتى .. وكـان أعضاء هيئـة الأطبـاء كريمى الخلق معى إلى حـد كبير، كـانوا بـالطبع يشجعـوننى ، وقـد تعلمت منهم الكثير جـداً .. ولابـد أننى تعلمت من هـؤلاء مايعلمـه لنا أساتذتنـا فى مصر من النظر إلى الحالة الإكلينيكيـة للمريض قبل التعليق على رسم القلب والكمبيوتر ياسيدى هو الآخر لا يغفل ذلك مع أنه بلا قلب على حـد تعبير الأدباء الـذين لم يعـاشروه !!.. فهو يـذكـر لك القسم من المستشفى الـذى فيه المريـض ، ويذكـر لك عمـره ، ويذكـر لك الأدويـة التى يتعاطـاها كذلك، بالطبع ليس كل الأدويـة وإنما تلك التى لها تأثير مباشر على رسم القلـب أو على العنـاصر المحـددة لكثير من التغيرات فى رسـم القلب كالبوتاسيوم والكالسيوم. على أن أعظم ما يحب أساتذتى فى مصر أن يسمعوا عنه فى هذه الحجرة هو ذلك النظام المحكـم الذى يسمح للأستاذ حين يريد أن يـراجع هذا الـرسـم لهذا المريض على رسم قديم لـه أن يجد الرسم القـديم فى دقيقتين أو ثلاثاً ، ما عليه إلا أن يطلب الرئيسة ، والرئيسة ستسـأل الكمبيوتر والكمبيوتـر يعطيها تاريخاً قـديماً رسم فيه القلب من قبل ، والرئيسـة تأمر الشرائط المغناطيسية بأن تخرج لنـا صورة من هذا الرسم القـديم وتناول لنا الرسم القديم بعد دقيقتين من طلبنا له !!

أعرف حـالة لأستـاذ طب مصرى سافر للعـلاج ، وأجرى قسطـرة.. كان يغنيه عن سفره وجود رسم قلب قديم ينبىء عن أن هذه التغيرات التى وجدت حديثاً كانت بسبب مرض حديث أو أنها لم تكن بسبب مرض فى القلب ، أوأنها من باب الاختـلافات الطبيعيـة. وأعرف حالات كثيرة مـرت علينا خـلال يوم الـدكتور هـودجمان لم يكن لها حل إلا التحـويل لإجراء دراسـات الكهربـاء الفسيولوجية ما لم يوجد لها هـذا الأرشيف العظيم الذى ساعدنا على توضيح طبيعـة تسارع ضربـات القلب هل هى من فـوق الأذين أو من البطين . كـان الدكتـور عبد العـزيز الشريف يقول دائما أن أصعب فصـل فى علم القلب هو

اللغط الانقبـاضـى .. وكنت أستعير مقــولتـه مع تغيير الموضــوع إلى فصل « تسارع ضربات القلب من الـ ق ر س العريض Tachycardia of wide QRS ، ومع هذا فأنا الآن أعتقد أن الأرشف الجيد يـزيل صعوبة هذا الفصل الذى أتحدث عنه بحيث تبقى مقولة الدكتور عبد العزيز الشريف أقرب إلى الواقع فى وجود نظام جميل وفى غياب جهاز الموجات فوق الصوتية . أما فى وجود التكنولوجيا (جهاز الموجات فوق الصوتية) وغياب النظام (الأرشيف الجيد) كما هو الحال فى مصر فستبقى لمقـولتى السيادة حتى يســود النظام . وبعـد أن ننتهى من تعليقاتنـا على رسم القلب يتناولها الفنيون فينقلـون تعليقاتنا إلى الكمبيـوتر ويـرسلـونها إلى الأقسام المعنيـة بمـرضـاهـا إذا كانـت لها علاقــة مبـاشرة بتشخيص أو علاج ثم يضعـون هذه الرســومات بكل مـا عليها من تأشيرات وتعليقات فى جانب من الحجرة تحت لافتة تقول إن هذه الرسومات متاحة لمن يريدها من الأطباء والطلاب والنـواب والمرضات يقرأونها ويتعلمــون منها شريطـة شىء واحـد ، ألا يعيدوهــا إلى هــذه الحجرة حتـى لا تحدث ارتباكـاً بوضـعها مع الرسوم الجديدة .

إلى عهد قـريب كانـوا يقرأون الموجـات فوق الصــوتية بنفس الطـريقة ، ولكنهم منذ شهـور كفوا عن هذا اللقــاء الذى كان يعقد فى الخامســة من بعد الظهر، وأصبحوا يكتفون بعرض أسبوعى للحالات النادرة أو الطريفة.

وفى معمل وظائف القلب أيضـا مكتبة تعليميـة عن استخدامـات الموجات فوق الصوتية فى كافة أمراض القلب ، بعض هذه الشرائط انتجته جمعية القلب الأمريكية بالتعاون مع مايو كلينك، وبعضها الآخر أنتجته الأقسام العلمية فى الشركات المنتجـة لأجهزة الموجات فـوق الصوتيـة كشركة الكاســون وشركة هولت بيكـارد .. وما عليك إلا أن تضـع الشريط وتقرأه كما يقـرأ الناس شرائط الفيديو .. تُبطىء الشريط حين تحتاج التـأمل وتسرع حين تكون فى حاجة إلى تخطى الفقرة كلها.

وفى تقارير القسطرة التى يوسعون بها الشرايين يحرصون على وضع الصور المطبوعة من الأفلام فيما قبل التوسيع وفيما بعده لكل شريان أو فرع من شريان أو جزء من شريان أجريت له عملية التوسيع .. سواء بالبالون أو بتقطيع الجلطة أو بوضع الـ Stent فى الجدار .

فإذا تركنا قسم القلب إلى قسم الباطنة العامة وجدناهم يجتمعون أيضاً فى مؤتمرات صباحية ، أنا مشغول عنها بالطبع بمؤتمراتنا الصباحية ، ولكننى اكتشفت أنهم يجتمعون كل ظهيرة فيما بين الثانية عشرة والواحدة فى مناقشة حالات طريفة من التى تقابلهم ، وفى يوم الخميس يخصصون اللقاء لمناقشة بعض المقالات المنشورة فى المجلات الطبية ويدير هذه الاجتماعات فى حضور الأطباء الكبار الدكتور باتريك وهو أحد الحائزين لوظيفة مشارك اكلينيكى Clinical Associate و هو فى مقتبل عمره ويتمتع هذا الطبيب بقدرة فائقة على الرذالة على زملائه شأن كاتب هذه السطور الذى يدعو الله سبحانه وتعالى أن يخلصه من عيوبه المتزايدة ، سأضرب لك مثلاً واحداً على رذالته ، كان فى يوم الجمعة ينبه إلى وجود صور من المقالات التى ستناقش الخميس القادم ، فإذا به يرجو النواب أن يقرأوا هذه المقالات جيداً ثم يردف بالقول أما الذين يحضرون الخميس من دون أن يقرأوها فإننى أرجو أن يأخذوا غذاءهم وينصرفوا قبل بدء مناقشة هذه المقالات !!

على هذا النحو تجد كل صباح قائمة بالكمبيوتر تضم مالا يقل عن مائة وخمسين لقاء علمى تتم فى قاعات هذا المستشفى المختلفة فى الأوقات المختلفة- وأمام كل لقاء مكانه وموعده وعدد المفترض حضورهم ، والسكرتيرة التى يستعلم منها عنه ، وبعض الملاحظات عما إذا كان هناك شروط للحضور، فى حالة المحاضرات المرتبطة ببرامج التعليم الطبى المستمر أو برامج الدراسات لما بعد التخرج ، أو الدراسات المتعمدة .. إلخ

هذه نماذج سريعة تعطيك فكرة عن الأداء التعليمى فى هذا الصرح الطبى فإذا بهرتك بعد ذلك النتائج التى يخرج بها المرضى من زيارتهم فتذكر أن الهدف من الطب عموماً ليس علاج المريض فحسب ولكنه تقدم التعليم الطبى من أجل علاج هذا المريض فى المستقبل بصورة أمثل!!!

فإذا وجدتنى فى موضع آخر من كتاب آخر من كتبى مصمماً على أن أصبغ الطب كله فى مصر بصبغة تعليمية بحيث تنتمى كل مؤسسات العلاج الطبى وكل مؤسسات الرعاية فى مستوييها الثانى والثالث كله إلى مؤسسات التعليم الطبى طبقاً لنظام متكامل ومتدرج فأعلم أن جذور فكرتى القديمة قد لاقت غذاء فى هذا المستشفى .

ومن قال إن الطب الأمريكى بحاجة إلى أن يتقدم بخطوات واسعة أو حتى خطوات بطيئة ، إنما تتقدم اليوم التكنولوجيات التى تساند خطوات التقدم الطبى التى تحققت فيما مضى ، ويتقدم تطوير هذه التكنولوجيات وتسخيرها لخدمة أهداف التشخيص والعلاج والمتابعة .. تكون النتيجة أن الطب يتقدم ، ولكن الفن الذى فى الطب نفسه لا يصيبه شىء أبداً من التقدم، ربما تعجب بشدة لهذا الكلام ولكنك إذا كنت طبيباً أمريكياً وعاملت الأطباء الفرنسيين ووجدتهم مثلاً يغيرون الجرعة المعهودة فى العلاج لمجرد الإحساس بأن تقليل الهيبارين من ٦٠ ألف إلى ٣٠ ألف قد يعطى نفس النتيجة .. ربما تصيبك الدهشة القاتلة أن ترى الأطباء يفعلون هذا الشىء من دون أن تكون لديهم دراسات مطولة أثبتت بكل التحليلات الإحصائية صواب ظنهم. دعك من تغيير الجرعة وتعال إلى تطوير طريقة من الطرق الجراحية مثلاً كيف يدرسها الأمريكيون تفصيلاً وكيف تنتهى دراساتهم إلى أنها لاتمثل تحسناً يذكر إلا بنسبة ٥٪ . ثم إذا هم يتجرأون وينفذونها وتنجح .. بعد نجاحها يمارس الإعلام الأمريكى الخطير دوره الجهنمى، فنسبة نجاحها إلى ما قبلها كالسماء

إلى الأرض ومخاطرها لا تتعدى ١٪ وتحسيناتها تمثل ٩٥٪ من طموحات الأطباء فيما قبل .. وهكذا . نجاحات الطب فى أمريكا مزيج من تكنولوجيا دائبة البحث ، وإعلام ذى صوت عال.. وهذا المزيج قائم على مزيج آخر أخفى من أن تراه عيناك مباشرة : فالتكنولوجيا مزيج من بحث نظرى مستميت ومجموعة لا متناهية من قواعد معلومات لا تترك صغيرة ولا كبيرة.. والإعلام مزيج من دراسات علمية اجتماعية وإنسانية عميقة ، ولغة تجمع بين الدقة والتعبير فى قدرة عالية على المواءمة لا يستطيعها إلا من وصل إلى درجة الساحر الذى يبلع النار وهو يسير على السلك المشدود بقدم واحدة مصنوعة من خشب هش يذروه الرياح : وهأنذا ألخص لك عوامل النجاح بطريقة ١ ـ ٢ فأعدد لك : ـ

□□ قواعد معلومات مجددة كل دقيقة ، متواصلة فيما بينها إلى أقصى الحدود، سهلة الاستخدام .

□□ دراسات علمية واجتماعية وإنسانية عميقة قادرة على مخاطبة الإنسان بكل ما فى الإنسان .

□□ استخدام سحرى للغة لايقلل سرعتها فيدركها الزمن الذى لايتوقف .. هى تعرف سرعته ولهذا تخافه خوفاً محسوباً ولكنه يتزايد مع كل حين لأن الزمن نفسه يكتسب من التكنولوجيا أبعاداً هائلة .. فالتكنولوجيا تخلق من الزمن فرانكشتين يرعبها هى نفسها .. التكنولوجيا لابد أن تنتشر حتى تحقق العائد الكفيل بأن يجعلها تزدهر .. وإنتشارها يصعب من ازدهارها ويجعلها مطالبة بتحقيق ازدهارات أكبر فى أوقات أقصر .

□□ إعلام لابد أن يكون قادراً على إدخال التكنولوجيا حتى ولو كان هذا على حساب تكنولوجيات أخرى كان هو نفسه المبشر بها !!

وهذه هى أمـريكا التى تظهر للطبيب تحت الميكروسكـوب فى أى مؤسسة طبية من مؤسسـاتها الناهضة.

هل تحدثنا ياسيدى عن بعض الميكروبات التى تحيط بهذه الصورة تحت الميكـروسكـوب للطب الأمـريكى ، نعم بـسـوسعى أن أحـدثكم ولكنـه حـديث هواجس:

□□ ألمح هناك حقيقة ـ لا أرى ولكن ألمح ـ ضـجـراً متواصـلاً من الإنفاق على كثير من البنود فى الرعاية الصـحية بما لا يمثل مردوداً حقيقياً على صـحة المواطن الأمريكى ولا على تقدم العلم.

□□ ألمح أيضـا بـوادر رغبـة على استحيـاء من النفس فى الخروج بـالطب الأمريكى كنشاط اقتصادى إلى ما وراء الأطلنطى .

□□ ألمح أيضـا وبصعـوبة بـالغة رغبة فى إعـادة تقييم نظم التامين الصـحى المطبقة وخصـوصـاً مـع التفاوت الرهيب فى تكاليفها وعوائدها ومردوداتها وضـجر الأطباء من بعضـها وإحجامهم عن مواصلة العمل فيها.

□□ ألمح أخيراً خوفـاً من تزايد اعتماد أمـريكا على التكنولوجيـات الأوروبية واليابانية فى الأجهزة الطبية إلى أكثر من الاعتماد شبه الكلى القائم الآن . وفى ظل انتفاء أو تقلص الرغبات الأمريكية فى اقتحام هذه الأسواق !!

الفصل السابع
المسلمون فى أمريكا
طيف واسع من الألوان الجميلة

المسلمـون فى أمريكـا شـأنهم شأن المسلمين فى كل مكـان طيف واسـع من الألوان الجميلة التى لكل منهـا حلاوته وروعته وجلالـه . والاختلافات بينهم لاتعكس إلا حرص المسلمين على إعـلاء كلمة اللـه وعلى إعطاء العقل مكـانة فى ذات الوقت . قوة الحجة تجعلك إذا كنت منصفاً لا تميل إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء بقـدر مـا تكتشف فى نفسك تـواضـعهـا وميلهـا إلى القـول بأنك لست بفقيـه ولامفت. كل يعمل من منظور ما وهـو يظن نفسه مقصراً فى حق دينه رغم كل إخلاصه لمنظـوره . والإسلام الحقيقى يزدهر فى قلـوبهم ويتنامى فى عقولهم ويتعمق فى أعمالهم ، وفى كل يوم ترتفع لـه راية جديدة إلى جـانب راياته التى ارتفعت من قبل .. وطبيعة الديـن السمح تقربهم من بعضهم ... وروح النظام الجميل فى الإسـلام الجميل تتيح لهم اللقاء المنظم بدون تكلف ولا عناء سواء فى الصلوات أو فى رمضان الكريم ، شهر البركة والإحسان.

ومع هذا لابـد من أن أحدثك من بـاب الرواية فقط عن بعض الاختـلافات الجميلة .. فهذا إمام مسجـد لا يمانع فى أن يأخذ المجتمع الإسلامى من البنك

قرضاً محدد الفائدة ليقيم التوسعات.. ولكن إمام مسجد المدينة المجاورة يرفض المبدأ من أصله.

هذا المركز الإسلامى الكبير فى لوس أنجليس لا يمانع فى تناول اللحوم المتاحة باعتبارها من طعام أهل الكتاب .. ولكن إمام مسجد ابن تيمية فى ذات المدينة يرى أنه لا مبرر لتناول هذه اللحوم مادام هناك جزار يذبح حسب الشريعة الإسلامية .

هذا المسجد يتيح لقاء الرجال بالنساء لأنه يريد للمجتمع الإسلامى أن يتعارف وأن تتقوى روابطه بالمصاهرة مثلاً ،أما ذلك المسجد : فلا يتيح على الإطلاق أى اتصال بين الرجال والسيدات.

أعظم ما فى كل هذا أن المسجد دائماً يحمل لافتة المركز الإسلامى . أقصد أنه ليس هناك مركز إسلامى ليس بمسجد .. أرجو وادعو الله أن أشهد اليوم القريب أن تكون المدرسة هى الأخرى المركز الإسلامى .

من الطرائف التى حدثت لأحد زملائنا فى كليفيلاند أنه وهو سائر بسيارته فى أيامه الأولى فى شارع يوكليد وجد مبنى عليه لافتة مسجد القرآن Qurran Mosque سر صاحبنا سروراً عظيماً لهذا المبنى الجميل الأنيق وواجهاته الزجاجية وعزم على الصلاة فيه .. لكنه كلما أتى باباً وجده مغلقا ، وعليه لافته أن الدخول للأعضاء فقط ـ ومن وراء الأبواب الزجاجية لمح موائد وبارات عامرة بأنواع الكحوليات كلها وبلا حصر ولا عدد .. قال فى باله : ما علينا .. أمريكا فيها كل شيء .. قد يكون مسجداً ونادياً فى ذات الوقت !! وفى النهاية وجد باباً مفتوحاً يخرج منه شخص ، تقدم إليه وسأله أين باب الصلاة؟ من حسن الحظ أن هذا الشخص كان مثقفاً وعرف أن صاحبنا مسلم فأجابه أن

هذا ليس بمسجد، وإنما هو ناد من نوادى إحدى الجمعيات الماسونية اتخذت له هذا الاسم من قبيل الديكور ليس إلا .. وتطوع الرجل فأرشد صاحبنا إلى مسجد بلال أو المسجد الحقيقى كما قال له .

أول جمعة لى فى كليفيلاند صليتها فى مسجد جميل قرب الجامعة وميدان الجامعة هو مسجد عقبة بن نافع رضى الله عنه وأرضاه . عرفت أن الطلبة المسلمين فى جامعة كيس ويسترن هم الذين تولوا شراءه وتجهيزه كمسجد.

المسجد بسيط ولكنه كفيل بأداء كل وظائف المسجد والمركز الإسلامى ، ألمح كثيراً من المصريين بين الحاضرين وكذلك ألمح فلسطينيين وعراقيين وشوام .. بالإضافة إلى الأمريكيين .

السيارات تحيط بالمسجد فى شوارع جانبية كثيرة ، والإمام اليوم هو أحد التجار الفلسطينيين وهو صاحب الجزارة الإسلامية ، الخطبة باللغة العربية ثم بالانجليزية Brothers & Sisters .

الدعوة إلى الإفطار تتجدد وفى هذا الأسبوع أيام إضافية كذلك . بعد الصلاة ألتقى بكثيرين من طلاب بعثات منح السلام المصرية.

المسلمون الأمريكيون حريصون وهم يقودون سياراتهم بعد أداء الجمعة أن يبطئوا سيرهم ليلقوا علينا السلام هم وأسرهم كذلك.

شعور جميل وعظيم ينتاب المرء منا وهو يرى نفسه واحداً من جماعة تجمعها كلمة واحدة هى كلمة التوحيد ـ تختلف الألوان والألسنة والمهن وتجتمع فى المسجد . تختلف المصالح والأغراض والوجهات وتجتمع مختلف السياسات والأوطان وتدور رحى الحروب هناك ونجتمع هنا .. ونحن نجتمع

فى كل حين لأن اللـه أراد لنا أن نكـون أمة واحـدة وستكون بإذنـه تعالى أمـة واحدة ، ويداً واحدة ، وإلى يوم الدين.

انتويت فى جمعة تالية أن أصلى فى مسجد بلال الذى فى شارع يوكليد ، أين هو بالتحديد ، لا أعرف كل ما أعرفه أنه على يمينك وأنت ذاهب إلى وسط البلد من المستشفى . ما علينا نسأل سـائقة الأتوبيس وبالتأكيـد لن تعرف فيكون من الطبيعى عندئذ أن تقترح عليك حلاً ادفع التـذكرة واركب وتطلع إليه حتى إذا وجدته فـاهبط .. وهذا ما حدث بالفعل .. ووجدت مسـجـد بلال رضى الله عنه وأرضـاه ونزلت .

المسجد جميل جـداً وخلفه مساحة انتظار هـائلة وهى حافلـة والحمد لله بالسيارات ، المسجد مبنى بالخشـب الأوك الجميل وسقفه على هيئة شبه قبة جميلة بحيث تمتـد أذرع متناسقة مـن الخشب لتكون سقفاً يتـوسطه دائرة صغيرة جداً فيما عدا هذا فلا يتكـون من السقف سطح أبداً إنما هو جمالون جميل جداً .

والمسجد من طابقين : فى الدور الأرضـى دورات المياة واستراحات وقاعات واسعة وفى الدور العلـوى ساحة الصلاة وهى مغلقة تماماً لابـد أن تفتح باباً حتى تـدخل إليها وفى هـذه الطرقـة التى تستقبلك بعد صعـودك السلم تجد حجرات للمكتبة وللإمام وللسكرتاريـة وتجد رفوفاً للأحذية .. ثم تفتح الباب المنزلق الذى سرعان ما يعود إلى الإقفال لتدخل إلى قاعة الصلاة.

وجـدت الأحــذيـة لا تتجـاوز سبعين فقلت فى سرى كأنهم هنـــا أيضـــاً لايلتزمون جميعـاً بتركها فى الخارج على الرفوف المعـدة.. فلما دخلت المسـجد وجدت أن عدد المصلين والمصليات قليل بالفعل .. هذا أول مسجد أصادف فيه

المصلين فى مقدمة المسجد والمصليات فى المؤخرة بدون فاصل إلا المساحة الكبيرة الخالية من المصلين .

الخطيب يخطب بالإنجليزية مع حماس جميل يجعل الانجليزية تتسع لعبارات الوعظ الدينية القصيرة المكررة المؤكدة.

وحين أقيمت الصلاة أمنا شخص آخر استطاع قراءة الفاتحة بالعربية وفى الركعة الأولى قرأ قل هو الله أحد وفى الركعة الثانية قل أعوذ برب الناس... (كأننى أنا الإمام) . لم أستعذب اللغة العربية يوماً كما استعذبتها وهى تخرج مكسرة تماماً من فم الشاب الذى أقام الصلاة ثم وهى تخرج ما بين التكسير والسلامة من فم هذا الشيخ الذى صلى بنا الجمعة.

أحسست بعد الصلاة كم نحن مقصرون فى حق هؤلاء .. إننا سعداء فى كثير من الأقطار الإسلامية بما نقدم لهم فى بعض الأحيان من فتات الأموال أو حتى الأموال الضخمة .. ولكننا نحرمهم أعظم شىء يربطهم بالإسلام وهو اللغة . لو بذلنا فى نشر اللغة العربية واحداً فى المائة مما تبذل فرنسا فى نشر اللغة الفرنسية إلى الحد الذى وصفه لى صديق دبلوماسى أوروبى بقوله «وإجبار الناس على تعلمها» أقول إننا لو بذلنا واحداً فى المائة من هذا الجهد فى تعليم اللغة العربية لهؤلاء الذين يستحقونها لصلحت دنيانا وصلح ديننا .

إن فرصاً لا تعد ولا تحصى متاحة ومفتوحة ومرحبة بنصف مليون خريج من الشباب للقيام بدورهم فى تعليم اللغة العربية للمجتمعات الإسلامية المنتشرة فى أمريكا وأوربا وأفريقيا وجنوب شرق آسيا .. كل ما هو مطلوب من هؤلاء أن يلموا باللغة الإنجليزية (أو غيرها) إلى الحد الذى يتيح لهم التعامل مع هذه المجتمعات من أجل الأخذ بيدها إلى تعليم اللغة العربية.

هذه المجتمعات ليست منظمة وليس أسهل من تعليم الصغار الذين يتوق أهلهم إلى أن يسمعوا القرآن الكريم باللغة العربية من أفواه أبنائهم .. سواء كان هؤلاء الأبناء لا يعرفون العربية أصلاً أو كانوا يعرفونها وشغلتهم الحياة الدنيا وزوجاتهم عن أن يجدوا وقتا يعلمون فيه أولادهم لغتهم الأولى ، كثيرون من الذين يقرأون هذا الكلام سيتأكدون من أننى أبالغ حين أقول نصف مليون ولكننى أخشى أن أقول إننى متواضع لأنى لو ذكرت الرقم الحقيقى لكان أكثر من هذا بكثير .

تسألنى بالطبع عن التمويل .. إن هذه المجتمعات قادرة على التمويل لأنه لا يكلف شيئاً .. هل توافقنى على أن تتصور المسألة بشىء من التقريب .. هل ألف دولار كمرتب لهذا الخريج كافية ـ تجيبنى بنعم ـ هل عشرة فى المائة من مصروفات إدارية لتنظيم العملية كافية ـ تجيبنى بنعم ـ هل عشرون فى المائة كذلك لاستئجار أماكن . إذا لم يكن هناك مساجد أو جمعيات إسلامية أو جمعيات أخرى لتعطى الفرصة لاستغلال المكان الخاص بها فى ساعات محددة أو لم ترحب السلطات الحكومية بإدراج هذه العملية ضمن البرامج الأساسية أو الإضافية فى المدارس التى تضم عدداً كبيراً من هذه الجاليات مع أن معظم السلطات توافق على مثل هذا المبدأ من مبدأ احترامها لحقوق الإنسان، وحقوق الأقليات وحرية العقائد ومع أن الهيئات الشعبية المحلية بالطبع حريصة بحكم النظم الديمقراطية على تهيئة هذه الفرص.

هل تكفيك عشرون فى المائة على سبيل الإجمالى كاحتياطى للحالات التى تحتاج تمويلاً لبند المكان تجيبنى بنعم .. إذاً هل مبلغ لا يتعدى ألف دولار ونصف فى الشهر يكفى لتعليم خمسين طفلاً أو قل أربعين يمثل مشكلة ؟؟

فى أمريكا وحدها مالا يقل عن خمسمائة ألف مجتمع مسلم فى آلاف المدن الصغيرة وأحياء المدن الصغيرة (عدد المسلمين فى التقديرات المتوسطة حوالى ٦مليون مسلم) ينتظر هذه الفرصة لتكون هناك مدرسة ولو من مدارس الفصل الواحد فى أيام الآحاد لإنجاز هذا الأمل العظيم الذى نتطلع إليه جميعاً بدون أن نبذل فى سبيله إلا الجهود المتفرقة .

وأحب أن نفهم أن هذا المشروع كفيل بتطوير برامجه ومناهجه يوماً بعد يوم بحيث يصبح خير وسيلة لوجود اللغة العربية فى موقعها الصحيح .. وبحيث يغفر للمسلمين تقصير بعض دولهم الرائدة كالدولة العثمانية فى حق لغة القرآن . ومن الواضح أننى أتحدث عن اللغة العربية كلغة ثانية إلى جوار الإنجليزية وهذا لا ينفى بالطبع أننى أتمنى أن أعيش حتى أرى العربية هى اللغة الأولى لكل مسلم على وجه الأرض ..

والأمر ياسيدى يستلزم حماساً تاماً لإتمام العمل من خلال منهج متصل معروفة حلقاته على مستوى العالم الإسلامى كله بحيث يقول الصغير فى اندونيسيا إنه وصل إلى الدرس السابع والثلاثين من الحلقة الثانية مثلاً فيجد نفسه عند انتقال والديه إلى أمريكا يواصل الدرس الثامن والثلاثين مباشرة ، وبحيث يستطيع وهو فى لوس أنجليس إكمال ما بدأه وهو فى نيويورك، وفى هذا المجال لابد أن اذكر أن أمريكا نفسها حتى اليوم لا تزال تعترف بعدة لغات أوروبية كلغة أولى :

فاللغة الأسبانية هى اللغة الأم لثمانية ملايين شخص أمريكى.

واللغة الألمانية هى اللغة الأولى لخمسة ملايين آخرين .

واللغة الإيطالية هى اللغة الأم لأربعة ملايين أخرى .

وأرجو أن يأتى اليوم الذى تحتل فيه العربية مكانتها اللائقة بها وبخاصة أنها اليوم هى اللغـة الأولى الحقيقية لمئات الألوف من الأمريكيين المهـاجرين. ولكن المشكلة التى أنبه إليها أنها تتراجع مع تعاقب الأجيال ربما إلى أن تصبح لغة أجنبية عند أبناء عـرب مسلمين ولدوا فى المجتمع الأمريكى لأم أمريكية أو لأم عـربيـة مسلمـة يشغلها عملهـا عن أن تعلم أبنـاءهـا العـربيـة فتتركهم يعاملونها بـالإنجليزية وكأنها تعامل الخواجات !! وتبقى العـربية بينها وبين زوجها فحسب!!

أعرف أن الأمـر يحتاج إلى وقفـة متأنية فى التخطيط الـدقيق وإلى أن نبدأ بولاية أو إقليم على سبيل التجريب الرائد ويحتاج إلى كثير من التنظيم واحترام النظام الأمريكى والتـوافق معه تماماً .. ويحتاج إلى كتـاب جيد التأليف وجيد الطباعـة وجيد الإخراج ويحتـاج إلى شبه هيئات مـركزيـة تتولى تنظيم بعض الأمور كتوزيع الكتب وتسكين المدرسين والحصول لهم على التأشيرات .. وكل هذا إذا عرفت الحياة الأمريكية من باب واسع وقوى ميسر بإذن الله .

أعرف أن العقبة الكبرى أمـام مثل هذا المشروع هى مسألة التراث المتراكم من ادعاء الفضل وحب الحمد بما لا نفعـل إلى حد العذاب وهو ما حـذرنا منه القرآن الكـريم ، والاحتمال الأكيد فى أن تتنـازع الإشراف على المشروع هيئات مختلفـة كـالخارجيـة والأوقـاف والتعليم والقـوى العـاملـة والهجـرة وكل المؤسسـات التى تتبعها هيئـات لا عـلاقـة لها من قريب أو بعيـد بمثل هـذا المشروع .. ولكن لو كان الأمر بيدى لتركته للجيش كما يفعلون فى فرنسـا حين يجعلـون تعليم اللغة الفـرنسة فى الخارج أحـد البـدائل للخدمـة العسكريـة الـوطنية الإجبـارية .. حتى نقل هـؤلاء الشباب إلى الخارج اتـركه للطـائرات الحربيـة لـو أمكـن !! حتى لا تصرخ مصر للطيران من رزق وفير لا تتعب فى

الحصـــول عليــــه وهى مع ذلك تشكـوه كما تفعل فى مــــواسم الحج وعــودة المدرسين!!

واحب أن أقـــول إننى لا أحلم بمستقبل لا يتحقق أو غير قــابل للتحقيق ولكننى أتحدث عن ماض تأخــر وقوعــه فى ظل انشغالنا التــام بأزمات كثيرة ابتلعت أوقاتنـــا وألهتنا عن مسئوليــات سوف يسـألنا عنهــا ربنا يوم القيــامة فنحن نترك الخريجين بــــلا عمل ثمان سنـــوات ونترك أخـــوة فى الإســـلام يتعطشـون إلى من يعلمهم لغة القرآن فى ذات الوقت.

لم أنته من أحلامى هـذه إلا وكنت خارج قاعة الصــلاة أمام المكتبة فقلت لنفسى ادخل المكتبة لعلى أجد أملاً ، فإذا باليأس يقتلنى .. المكتبة مجموعة من كتب تصلـح لأى مدرسـة أمــريكية ليس إلا .. وعلى رف أو رفين فقط من المكتبة الكبيرة جداً تجد مجموعــة من المصاحف وصـحيح البخارى وكتــاباً فى فلسفة توما الاكوينى .. كل هذا ما يمكنك أن تعتبره ذا عــلاقة ولو إلى حد بعيد بمكتبة فى معبد! .. وعلى المنضدة التى تتــوسط المكتبة تجد أعداداً من جريــدة آسيوية إسلاميــة إعلاميــة مصورة فاخــرة الطباعة والــورق .. إذن فالطــريق إلى هنا معروف ولكنه لا يحمل ما ينبغى أن يحمله من زاد يبنى ضمائر المسلمين!!

أما أعــداد المسلمين فى أمريكــا فتتضارب حـولها الأرقام .. كما تتضـــارب حـــول أعدادهـــم فى كل مكان ، وليس مــن شـأن هذا الكتـــاب أن يحلل لك هــذا التضــارب لأن مــؤلفه لا يعهد فى اليــوم نفسه القــدرة على الزعم بالــوصول إلى الحقيقة فى أمر يحتــاج القول الفصل فيه كثيراً من الوقت والــدراسة، ومع هذا فإنه يمكن بوسـائل كثيرة تقدير أن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية لا يقل عن ستـــة مـلايين شـخص، على أنى مع هـــذا أحب أن أشير إلى خمس موجــات للهجرة إلى أمــريكا: الأولى فيما بين ١٨٧٥ ، ١٩١٢ وفى هــذه الهجرة

جاء كثير من التجار وطلائع أدباء المهجر .الثانية فيما ١٩١٨ و ١٩٢٢ حيث تدفق مسلمو لبنان للعمل فى مصانع فورد للسيارات فى ولاية ميشجان .الثالثة فيما بين ١٩٣٠ و ١٩٣٨ فى فترة الكساد العالمى فى الثلاثينات .والرابعة فيما بين ١٩٤٧ ، ١٩٦٠ فيما بعد الحرب العالمية الثانية .والخامسة فيما بين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ . ويقال مثلاً إن حوالى عشرين ألف مصرى فيما بعد ١٩٦٧ قد هاجروا إلى ولاية نيوجرسى وحدها .

ولاشك أن أمريكا تفيد من العقول المسلمة أكثر مما يفيد المجتمع الإسلامى .. لا تظننى أديباً مجازى اللفظ وأنا أكتب هذه العبارة .. ولكن تأمل معى ما يعنيه أن أعداد الأطباء الإيرانيين العاملين فى مدينة نيويورك وحدها يفوق كل الأطباء الإيرانيين العاملين فى إيران. دعك من إيران وتأمل الجانب الآخر من الخليج العربى الذى تصر الصحافة الأمريكية على تسميته بالخليج الفارسى حيث العراق .. تجد أن أكثر من ثمانين فى المائة من مبعوثى العراق إلى أمريكا لا يعودون إلى العراق بعد انتهاء بعثاتهم..

دع العراق وإيران واذهب إلى الباكتسان حيث لايزال الناس هناك يتعلمون بالإنجليزية ويتخرجون من جامعات تدرس الإنجليزية تجد أنه ما أن تعلن نتيجة كل الطلبة حتى يكون أكثر من تسعين فى المائة من خريجى مدارس الطب واقفين أمام أبواب السفارتين الأمريكية والإنجليزية يبدأون كل المحاولات الكفيلة بالحصول على فرصة لقضاء النيابة فى هذه البلاد.

أنا لا أعرف هل كان الأمر يصبح كذلك فى مصر لو كنا ندرس الطب بالإنجليزية بدلاً من الفرانكوآراب .. ولكننى متأكد من أنه لن يصبح كذلك على الأقل فى هذا الجيل ، لأن معظم خريجى ما يسمى مدارس اللغات الانجليزية يعملون معنا فى مصر ولا يندفعون إلى هذا الذى يندفع إليه الباكستانيون بله

الباكستانيات .. لن أحدثك عن أهل الشام فأنت تعرف حبهم جميعاً للمهجر، من أجل كل ما هو جميل فى المهجر ، وحرصهم على الوطن من أجل ما هو جميل فى الوطن ولكنى أحب أن أنتقل بك إلى هجرة الأيادى كما حدثتك عن هجرة العقول فلا تزال أمريكا بحاجة إلى كثير جداً من الأيادى . وللطبقات الفقيرة غير المتعلمة مكان أيضاً فى أمريكا: فى مزارع قصب السكر فى فلوريدا و فى نصب السياج حول مزارع المواشى والخيول فى تكساس . و فى جمع التفاح فى فرجينيا و حصاد الشمندر فى كولورادو و جنى القطن فى نيومكسيكو. وأعمال النظافة فى الفنادق الأمريكية.

ومع هذا كله فلازلت أرى أنه لابد من أن يشعر المسلمون فى كل مكان أن أمريكا ليست لغيرهم فقط ، ذلك أن العالم الجديد كله نعمة من الله للعالم القديم كله . فإذا كان ولابد من الحديث عن الحقوق التاريخية (على أساس أننا فى عام ١٩٩١ التالى لعام الحقوق التاريخية) حقوق الاكتشاف فإنه من الثابت أن المسلمين اكتشفوا العالم الجديد فى القرنين العاشر والثانى عشر الميلادى قبل كولمبس كما أن المسلمين السود دخلوا أمريكا منذ ١٥١٨ كمهاجرين لا كرقيق وقد أفاض فى تأصيل هذه المعانى جابر هاشم فى كتابه MY NATION الذى صدر عن المطبعة الإسلامية فى ١٩٨١.

ولابد أن نفهم أن ظلم المسلمين الأفارقة وإحضارهم كرقيق لم يحدث فى مطلع العالم الجديد وإنما بعد ذلك بقرن أو بقرنين وقد بلغ ذروته فى الفترة مابين ١٧١١ ـ ١٨١٠ على يد التجار البريطانيين والفرنسيين.

ليس هذا الكتاب مجالاً مستفيضاً لأحدثك فيه عن الدعاة إلى الإسلام وزعماء الحركات الإسلامية الحقيقية أو الممولة للعمل ضد الإسلام.. ولكنى أستطيع أن أدلك على مجموعة من الكتب تحدثك عن هؤلاء : فهناك كتاب

"المسلمون فى أوروبا وأمريكا" نشرته دار ازيس للتأليف والنشر والترجمة والنشر للأستاذ على المنتصر الكتانى ١٩٧٤ . وهناك كتاب «العرب فى المهجر الأمريكى» للأستاذ عامر إبراهيم القنديلجى ، نشرته وزارة الإعلام فى بغداد عام ١٩٧٧ . وهناك دراستان هامتان للأستاذ كمال كامل نمر الذى يشغل منصب المشرف التربوى فى الأكاديمية الإسلامية السعودية فى واشنطن : الأولى بعنوان أحوال المسلمين فى أمريكا تربوياً ، وقد نشرتها فى الدوحة عام ١٩٨٥ مؤسسة الشرق للعلاقات العامة للنشر والترجمة . والثانية تحمل عنوان "أضواء على أحوال خير أمة أخرجت للناس فى الولايات المتحدة الأمريكية» وقد نشرتها عام ١٩٨٦ دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع فى بيروت .. وهناك أيضاً كتاب «الجالية الفلسطينية فى الولايات المتحدة الأمريكية» لرياض مقصود (١٩٨٠) . وهناك كتاب هام يحمل عنوان «صورة العرب فى أمريكا» للدكتور عبد القادر أبو شريفة، نشر فى شيكاغو عام ١٩٨٥.

وفى فترة سابقة على هذه الفترات نشرت عدة دراسات وانطباعات هامة عن أمريكا لعل القراء يذكرون منها كتاب الأستاذ مصطفى أمين عن أمريكا (الذى أعيد طبعه مؤخراً فى القاهرة) وكتاب الأستاذ سيد قطب الشهير ، وأذكر بهذه المناسبة أننى التقيت فى مكتبة الجامعة الأمريكية بالقاهرة حوالى عام خمسة وثمانين بأستاذة أمريكية كانت تبحث عن الحلقات الأصلية التى نشرها سيد قطب عن زيارته لأمريكا قبل أن يجمعها فى كتاب.. يبدو والله أعلم أن حرص الدارسات الأكاديمية الأمريكية بلغ الحد الذى جعلهم يقارنون الحلقات الأصلية بما جمع كتب ليروا ما قد يكون سيد قطب قد حرص (افتراضياً) على تعديله فيما بين النشرين!! وقد نشرت عن هذا الكتاب دراسات كثيرة منها

كتاب «أمـريكا من الـداخل بمنظار سيد قطب» لصـلاح عبد الفتـاح الخالدى نشرته دار المنارة للنشر والتوزيع فى ١٩٨٥ .

ليس هـذا الكتـاب مجالاً لتحليل أو تلخيص هـذه الكتب وإن كنت أود أن أتمكن من ذلك عن قريـب بعون الله ولكنى لا أستطيع أن اترك هـذا الموضوع دون أن آخـذ على الـدكتـور كمال نمر تحاملـه على « ولاس محمـد . والهيئـة الإسلامية الأمريكية » فعلى الرغم من أن الدكتور نمر يشهد لولاس محمد بأنه قام بإصـلاحـات جذرية فى عقيدة جماعته ، وأنـه بادر إلى تغيير اسم الجماعة من أمة الإسـلام أو البلاليين إلى الهيئـة الإسلامية الأمـريكية . The American Muslim Mission و « أنه أعلنها صريحة مدوية فى مؤتمر رابطة العالم الإسلامى سنة ١٩٧٧ فى مدينة نيو آرك أنه هو وأتبـاعه جميعاً يشهدون منذ اليوم أنهم مسلمون سنيون يتبعون القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة وطالب أتباعه بالصلاة والصيام والحج».

وعلى الرغم من شهادة الدكتور كمال نمـر لهم بالقوة والنشـاط ، فعددهم يربو على مليون عضو ولهم إذاعة تنقل دعـوتهم لأعضاء الجماعة وللآخرين ولهم ١٥٦ مسجداً فى ٣٩ ولاية وفى العاصمة واشنطن» .

على الرغم مـن ذلك إلا أن الدكتور كمال نمـر شأنه شأن كـل الأكاديميين يتحفظ فيردف كل ذلك الخير بقوله إن هناك من ينظـر إلى هذه الجماعة نظرة ريبـة وتوجس معتبراً أنهم منبثقين عن القـاديانيـة وهى جماعـة مرتـدة عن الإسـلام .. ولك ياسيـدى الدكتور نمر أن تتحفظ ولكن أن يكـون تحفظك هذا صـادراً أو مؤيداً فحسب بعبـارات الأستاذ الكتانى كما نقلت فأمر لا نستطيع أن نقرك عليه لأن الكتانى نشر رأيه فى ١٩٧٤ وأنت بنفسك الدكتور كامل نمر الذى تنبهنا إلى مـا أعلنه ولاس محمد (صريحة مدويـة فى عام ١٩٧٧) .. إذن

كان لابد ياسيدى وأنت تملك أداة البحث العلمى الحق أن تدلنا على رأيك حتى لو كان متحفظاً.. أما أن تورد رأياً مخالفاً لرأى لتعقب على الرأى الأول فحسب فأسلوب لا بأس به فى البحوث الأكاديمية ليظهر ما نسميه بالموضوعية ، أو لينبىء عن كثرة مطالعتك للمصادر المختلفة متضاربة الآراء .. ولكنه يصبح قاصراً فى كتب من شأنها أن تحدث المسلمين عن عقائد المسلمين وتطورات هذه العقائد .

بقى أن اتحدث عن انطباعاتى عن الدعوة والدعاة وأكون مخطئاً إذا زعمت لك أن فى وسعى أن اتناول هذا الحديث باستفاضة أو فهم عميق ، ولكنى مع ذلك أحب أن اذكر لك انطباعى أن الإسلام فى أمريكا لا يحتاج إلى دعاة من أولئك الذين يرون أنهم غير ملزمين بتعلم اللغة الإنجليزية لأن القرآن نزل بلسان عربى ولأن لسان أهل الجنة عربى ، أو أولئك الذين يجدون كراهة فى تناول طعامهم بالشوكة .. أما المؤسسات التى تنظم عمل أولئك الدعاة فينبغى أن تكون أبعد ما تكون عن الولاء القومى !! طبعاً من الغريب أن تقرأ ياسيدى القارىء عبارة مثل هذه التى صدمتك بها لتوى ! ولكن هذه هى الحقيقة التى لابد أن نعرفها ، فالدعوة لوجه الله والولاء لدعوته ودينه ينبغى أن يكون الهدف الأول والوحيد لكل مؤسسة تعمل من أجل دعوة التوحيد .. فيما عدا ذلك فإن الولاء القومى والحزبى كفيلان بتحويل الأئمة إلى كُتّاب تقارير ، والدعاة إلى موزعى منشورات حتى وإن كانت هذه المنشورات كتباً .

ومع أن طريق الدعوة الإسلامية فى المهجر محفوف بكثير من المصاعب والمخاطر فإنى لا أشك لحظة واحدة فى أنه سوف يلاقى نتائج طيبة ربما بأكثر مما يتوقع العاملون فيه .

كتب للمؤلف

١ - الدكتور محمد كامل حسين عالماً ومفكراً وأديباً ،

(الكتاب الفائز بجائزة مجمع اللغة العربية الأولى فى الأدب العربى عام ١٩٧٨) .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

٢ ـ مشرّفة بين الذرة والذروة،

[نال عنه المؤلف جائزة الدولة التشجيعية فى أدب التراجم عام ١٩٨٢] .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة، ١٩٨٠

٣ ـ كلمات القرآن التى لا نستعملها (دراسة تطبيقية لنظرية العينات اللفظية) ،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٤ ـ يرحمهم الله (كلمات فى تأبين بعض الشخصيات)

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٥ ـ من بين سطور حياتنا الأدبية (دراسات أدبية)

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٦ ـ الدكتور أحمد زكى ، حياته ، وفكره ، وأدبه .

الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٧ ـ مايسترو العبور المشير أحمد اسماعيل ،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٤ .

٨ ـ سماء العسكرية المصرية الشهيد عبد المنعم رياض ،

دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، ١٩٨٤ .

٩ ـ **الدكتور على باشا إبراهيم**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ،١٩٨٥ .
١٠ ـ **الحلول الجزئية هى الأجدى أحيانا .. مستقبلنا فى مصر**،
دار الأطباء ووكالة الأهرام للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٥ .
١١ ـ **التشكيلات الوزارية فى عهد الثورة**،
الهيئة العامة للاستعلامات ، القاهرة ،١٩٨٦ .
١٢ ـ **الدكتور سليمان عزمى**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
١٣ـ **الدكتور نجيب محفوظ**، سلسلة أعلام العرب ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ .
١٤ـ **دليل الخبرات الطبية القومية مع مقدمة وافية عن تاريخ وحاضر مؤسسات التعليم الطبى المصرية**،
مركز الإعلام والنشر الطبى ، الجمعية المصرية للأطباء الشبان ، ١٩٨٧ .
١٥ ـ **الصحة والطب والعلاج فى مصر**،
جامعة الزقازيق ، ١٩٨٧ .
١٦ـ **توفيق الحكيم من العدالة إلى التعادلية**، المكتبة الثقافية ،
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٨ .
١٧ ـ **رحلات شاب مسلم**،
دار الصحوة للنشر والتوزيع ، القاهرة ، ١٩٨٩
١٨ـ**الببليوجرافيا القومية للطب المصرى** ، الجزء الأول والثانى ١٩٨٩ ،
الجزء الثالث والرابع ١٩٩٠ ، الأجزاء من الخامس وحتى الثامن ١٩٩١ .
الأكاديمية الطبية العسكرية ، وزارة الدفاع ، القاهرة .
١٩ـ**منهج أدباء التنوير فى كتابة تاريخ الأمة الإسلامية**،
رابطة الجامعات الإسلامية ، الرباط ، ١٩٩٠ .
الطبعة الثانية : **أدباء التنوير والتاريخ الإسلامى** ، دار الشروق، ١٩٩٤.

٢٠ ـ مجلة الثقافة [١٩٣٩ ـ ١٩٥٢] : تعريف وفهرسة وتوثيق،
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣ .

٢١ ـ شمس الأصيل فى أمريكا (من أدب الرحلات) ،
دار الشروق، ١٩٩٤ .

٢٢ ـ أوراق القلب (رسائل وجدانية) ، دار الشروق، القاهرة ، ١٩٩٤ .

٢٣ ـ مذكرات وزراء الثورة [دراسة تشريحية تاريخية نقدية لعشر مذكرات سياسية] .
دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤ .

٢٤ ـ المحافظون (قوائم كاملة ، وفهارس تفصيلية وأبجدية ، ودراسة لتسلسل وتطور اختيار المحافظين منذ بدء الإدارة المحلية فى ١٩٦٠ وحتى الآن) ،
دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤ .

المحتويات

رقم الإيداع ١١٣٤٨ / ٩٤
I.S.B.N 977 - 09 - 0255- 1

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ ـ فاكس : ٣٩٣٤٨١٤
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣



شمس الأصيل في أمريكا



د . محمد محمد الجوادى

« وأنا أعرف أن مهمتى فى كتابة رحلاتى شاقة عسيرة لأنى لا أصف الطبيعة كما فعل الذين سبقونى .. ولكنى أحاول أن أصف الحضارة ، ووصف الطبيعة لايستلزم إلا الحاسة الصادقة .. أما وصف الحضارة فيستلزم مع هذه أقداراً متنامية من الدقة والإحاطة والتعمق والفهم والترتيب .. ويستلزم قبل ذلك أن تكون جندياً من جنود الحضارة لافارساً من فرسان الطبيعة ، أن تكون جندياً قارب نيل الشاهدة وأثخنته الحضارة بآثار عمله من أجلها قبل أن تكون فارساً أعطته الطبيعة بقدر ما استمتع بها »